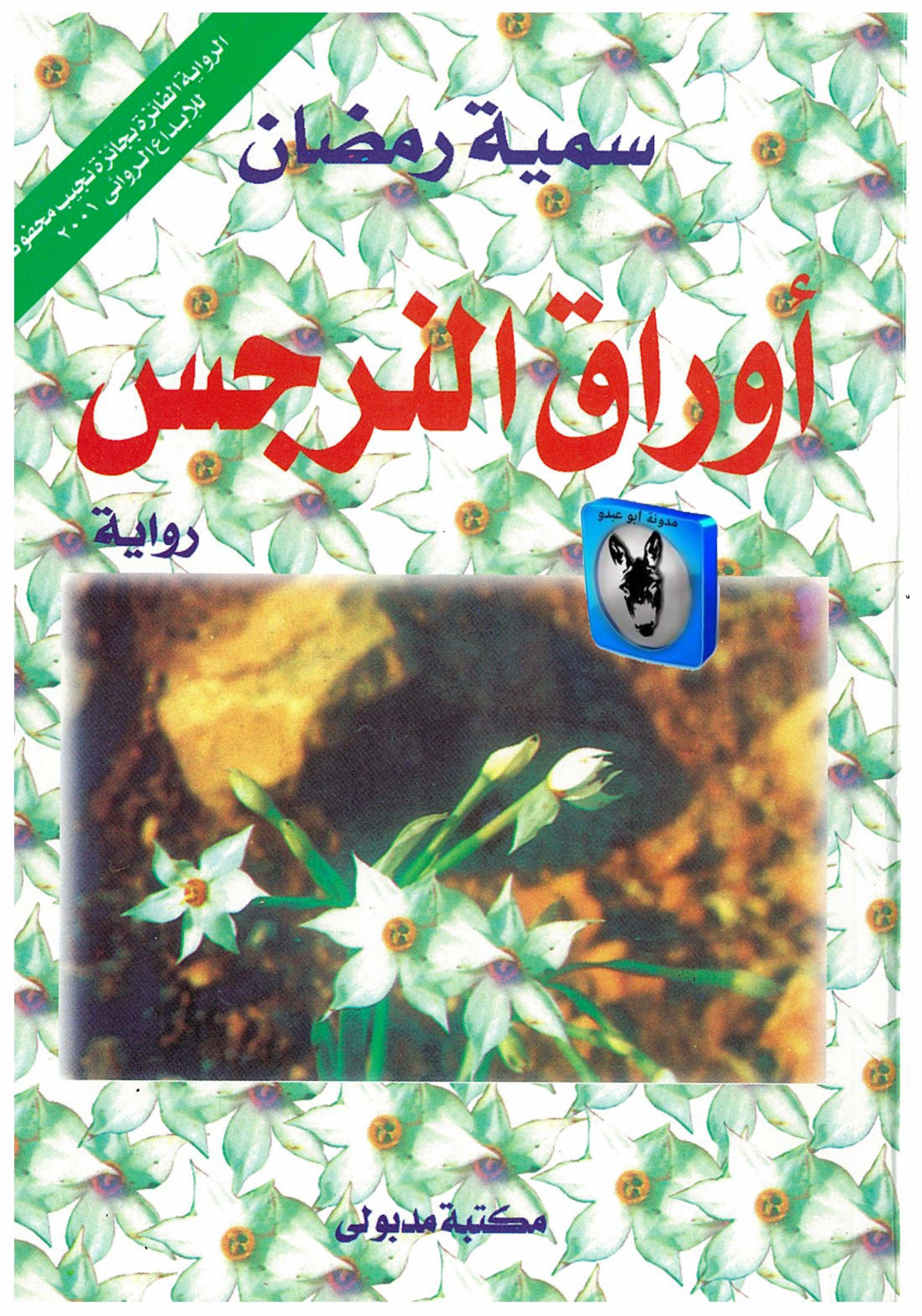

الرواية الفائزة بجائزة نجيب محفوظ
للإبداع الروائى ٢٠٠١
سمية رمضان
أوراق النرجس
رواية
مدونة أبو عبدو
مكتبة مدبولى

أوراق النرجس

الــــروايـــــة : أوراق النرجس

الــكــاتــبـــــة : سمية رمضان

الـطـبــــعــــة : الأولى ٢٠٠١ دار شرقيات

الثانية ٢٠٠٢ مكتبة مدبولى

الـنــاشـــــــر : مكتبة مدبولى ٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة

تليفون : ٥٧٥٦٤٢١ فاكس : ٥٧٥٢٨٥٤

الإخراج والتنفيذ : مكتب النصر للجمع التصويرى

القاهرة - تليفون : ٧٨٦٣١٩٩

رقــم الإيــداع : ١٠٥٠١ / ٢٠٠٢

التـرقـيم الدولى : 977-208-388-4

سمية رمضان

أوراق النرجس

(رواية)

مكتبة مدبولي

ربما

اللحظة ماقبل الاستسلام هى الأصعب . ربما كان هذا هو سر جاذبيتها النهائى . حد المقاومة على حافة القضم ، بعد أن يكون الكيان قد تمدد كأقصى ما يمكن . الهوة لا ملامح لها . جديدة تماماً ومستعصية تماماً على الخيال . شئ مثل هذا يحدث لمن يساقون إلى حبل المشنقة ؟

ربما . يظل معهم أمل ما إلى أن يغيبوا فى القاع . الفارق الوحيد ، أنهم يساقون . رغماً عنهم . لابد أن ذلك أرحم ، لابد أنهم ييأسون ومن ثم يموتون وينتهى الأمر . أو ربما يظلون يأملون إلى أن ينتهى الأمر . الفارق أن أمرهم ينتهى .

ما إن تدخل حبة الدواء إلى فمى حتى ألفظها : هى حبة صغيرة بعدها تنامين نوماً عميقاً ، هذا هو كل المطلوب . ويطلبونه ، الأصدقاء ، والصديقات وأخوتى وأمى . الأقرباء الأقرب يتآمرون مؤامرة طيبة بعدها سوف تنامين نوماً عميقاً . ثم تبدأ المفاوضات ، وأنهكهم . حواسى مركزة تماماً . التقط كل نبرة . كل الموسيقى فى النبرة . وأمامى يتحولون من نبرة إلى نبرة ، ويتخذون هيئة ، أزهى وأحدّ وأشد وضوحاً . عيونهم

تـــلمع ، وتمـــلأ أجسادهم الفراغ على نحو أكثف ، حتى وهم متعبون . الهالات السوداء حول عيونهم تكحل العيون ويصبحون كلهم . الأقرباء ملائكـــة الموت الوحيد . يتكتلون فى جبهة وأنا وحدى أقاوم . جسدى كلـــه متحفز ، ذهنى كله متيقظ ، مشتعل بكهرباء الوضوح ، يستهلك "نيوروناتـــه" فى ســـرعة اللمح داخل أروقة الدماغ حيث تتبدى الحقيقة ســـاطعة جـــلية ، وحيث الذاكرة اليوم حديد : هم لايستطيعون قتلك وإلا صاروا قتلة ، هم فقط يريدون التأكد من أنك تنفذين الحكم بنفسك فى نفسك .

"حبة وردية صغيرة وبعدها تنامين إلى الأبد ، وينتهى عذابك" .

تتـــبدل البدايات كما هى شيمة البدايات ، كل مرة . لا أعرف متى يـــبدأ الضـــجيج فى الاستحواذ على دماغى ، ذهنى ، عقلى ، روحى . ضـــجيج مـــبهم وأصوات لا تبين . رويداً تستولى الضجة على ساعات الـــنوم، ســـاعة ، ساعة حتى يصير النوم مرادفاً للعدم . الداء والدواء ، السُم والترياق . الاثنان متلازمان شأن كل شئ . وأجبن . من يذهب إلى العدم بارادته؟ أحياناً أخدعهم . أوهمهم أننى ابتلعتها . ويفرحون فأحزن. فى الحـــزن يـــرق القـــلب ، ويحل الحنو المشفق محل التحفز وضروريات الدفـــاع عن الذات . ويرق قلبى لهم فيتحولون . يذهب السواد العميق الـــذى كـــان يكحـــل جفونهم ، وتختلف موسيقى النبرات . تختفى نبرة

الخداع من سلم الكلمات ، يصبحون ملائكة ، رحيمة ، مشفقة ، محبة . مـــا اسمـــه نقيض عزرائيل؟ أم أن عزرائيل هو اسم آخر للرحمة؟ لكنهم يظلون فى جبهة ، كأسنان المشط ، متفقين تماماً مثلما يتفق من يعلمون ، على أمر ما ، حتى لو كانوا يختلفون فى بقية الأمور .

اخـــتلاف الحكماء لا يفسد عليهم هذا الود الذى يسرى بينهم الآن وقد اجتمعوا على الطيبة والمحبة ، هم يفعلون ما يفعلون لأمر لا أدركه : أدرك فقط أن النية من ورائه سليمة وأن الموت الشخصى الوحيد ، موتى أنـــا ، هو لحكمة أعلى ، ولخير أبقى منى وربما من كل الناس . لابد أنه كذلك وإلا ما استطاع أحد الانصياع .

أبلع الحبة الوردية الصغيرة وتجتاح جسدى دلائل الموت ببطء شديد، فتبدأ زلزلة قوية مكتومة تنتابنى من أخمص قدمى ، وتنتهى بأورجازم أقوى وأبطـــأ وألذ من كل ما خبرت ؛ يتلوه آخر يتلوه آخر ، فى موجة وراء موجـــة وبـــنفس القوة والبطء . ولما تنتهى الموجات القابضة الباسطة ، ويســـود الخـــدر رأســـى أتأكد أننى قد مت فأشهد بصوت واضح كما علمونى : أن مملكة الرب قادمة ، وأنه لا إله إلا الله ، والحكماء من حولى يبتسمون ، ها قد رضوا عنى ورضيت عنهم ويعم سلام الاستسلام .

أشـــهد : أنى فعلت كل ما بوسعى . وأنى قاومت بكل ما أملك من ارادة وأنى تشـــبثت حتى آخر لحظة ، حتى وأنا أشاهد عقلى يحلّق بعيداً وأنى لم أيـــأس . وإذا كـــنت ظللت لا أفهم ، فليس ذلك لأنى تقاعست

ولكــن لأن الخير أكبر من ادراكى ، والشر كذلك ، وأنت أيها الرب ، تختــبئ وتــبين كالزئبق ، تراوغنى بجمالك ، أراك ولا أراك وأستمسك بمظاهــرك : الأشجار والجبال ، والورود والبشر . عندما لا أحياك بين ضــلوعى جمــالاً قاسياً ، حياة زاخرة ، مفعمة فى كل خلية دائرة . حين تــنحجب عــنى وراء البــنايات الأسمنــتية القبــيحة ، وتعلو أصوات الميكــروفونات النكيرة ، ولا أعود أرى السماء من وراء الدخان المنبعث من حرق القمامة ، حينئذ أستمسك بالايمان بالبشر أبناء دموعك وثغور ضــحكاتك ولمعة بصرك الحانية القاسية ، وأشفق على نفسى من إصدار الأحكام المغرورة .

فى تــلك اللحظة أنا طفلة صغيرة بل كل الصغار فى واحدة وعندما أستعد للموت تكون واحدة أو أخرى أو كلهن فى واحدة جزءاً لايتجزأ منى؛ ويكون على القيام بعملية فى منتهى الصعوبة . يكون على تخليصهما مــن بين ثنايا جسدى وروحى . روحى التى تتغذى عليها تلك الشيطانة المــزدوجة ، المتعددة هى أنا وليست أنا ، وآمرها كما لو كنت قسيساً عارفــاً برقى وتعاويذ تخليص الأجساد المعذّبة من الأرواح الشريرة . من تحــت أنفاسى ، تحت وقع الخطر الكبير ، وكل ذرة فى جسدى ترتعش يكون على قتلها والاحتفاظ بروحى .

طـــلوع الـــروح من الجسد مثل مرور الحرير على سطح من شظايا الزجاج المدببة . كيف أمرر الأخرى وأتحمل حشرجات موتها ولا أموت معهـــا؟ هـــى مخاطـــرة كـــبرى ولكنهم يشجعوننى ، وقد ارتسمت على وجوههـــم الآن سمات المتآمرين الطيبين . لكنها طيبة قاسية ، فهم أيضاً يعلمون ، أنها قد تقتلنى وتحيا هى ، أو أننا قد نموت سوياً . أستجمع كل شجاعتى . وأتقبل هول الخطر ، أضع حياتى ذاتها رهناً للموت أو البقاء ، لا حامى ، ولا صديق ، اليوم ، عالم فقد كل انحيازاته ، وقف يشاهدنا أنا وهى نتصارع ، وهى قد تكون أحداهما أو الأخرى وقد تتحول تحولاتها المعهودة ، لتراوغنى فتصبح الاثنتين فى آن . قاتلة أو مقتولة ، آمرها :

– داى آنا!

– موتى يا آنا!

– أم ترانى أقول :

– موتى يا آمنة .

درس الحساب

تفقـــد أعصابها تماماً ويحمر وجهها الصغير النحيل ، ويبدو لى شاربها الـــناعم حول الفم الصارم تحته قوسان محفوران علامات امتعاض ومرارة طويـــلين : مس ديانا عانس يونانية تدرس الحساب والجبر لبنات الأثرياء الغلابة ، تلبس حداداً دائماً وتفقد أعصابها كثيراً :

- يور ستيوبيد!

تمـــتد يدهـــا إلى خصلة فى مقدمة الرأس الصغير وتهوى بالرأس على بلـــلورة ترابيـــزة السفرة . زجاج تشيكى مشطوف عند الحواف على خشـــب الأرو "الماسيف" : كتلة صماء . مس ديانا خداها غائران ويكاد بيـــاض جـــلدها يشف عن عظم الفكين المنحوتين بدقة ، فيبدو شعرها القصـــير أكـــثر سواداً ولمعاناً . عصبية المزاج ، وبالطبع سريعة الغضب وتعشق الأرقام .

رفعت يدى أتحسس شعرى . لا أشعر بأدنى ألم . كان رأسى قد ذهب لينام . الإنكار هو الحل الوحيد لانقاذ الكبرياء . كان رد فعل تلقائياً وان

لم يكن طبيعيًا ألا تبكى صغيرة بالكاد عمرها عشر سنوات فى مثل ذلك المشـــهد . الفتاة ليست متأكدة من ذنبها . والتهمة من الصعب درؤها فهى بالفعل لاتفهم الحساب . لكن وجهها فيما يبدو لايبدى كم الارتباك الداخلى الذى تحدثه صدمة ارتطام الرأس ببللورة ترابيزة السفرة ، وانما اللامـــبالاة . كـــان هذا هو خط الدفاع الوحيد . الشكل الوحيد المتاح للتمرد . الشكل الوحيد للحفاظ على عزة النفس الغالية . قطع الأواصر ونفى العالم . وعندما يدخل أبوها إليهم فى ابتسامته المعتادة المتفائلة تندفع مس ديانا فى الشكوى :

– ابنـــتك تدعـــى عدم الفهم . أنا أدرى بأنها لو أرادت لفهمت . ابنتك دماغها حجر .

تختفى الابتسامة من على وجه أبيها وتشعر بغضب يتصاعد منه إليها. هـــو أيضـــاً يحملها تبعة عدم الفهم وإلا لماذا لا يرفع صوته محتجاً على ما تقول هذه المرأة العصبية ؟

كـــانت بلـــلورة ترابيزة السفرة قد شرخت وكما هى عادة الزجاج مهمـــا صقل أو كان سمكه ، يبدأ الشرخ بسيطاً فى منطقة صغيرة ثم يمتد كجدول ماء يشق له طريقاً فى الأرض بصعوبة فى البداية ثم بسرعة أكبر وقد يظل يتفرع ويتفرع حتى يغطى مساحة لا بأس بها .

- أرأيــت ؟ قـــالت وهى تستعد للرحيل ، تضع أقلامها والمسطرة و"الجوما" . فى شنطة يدها بحرص وعلى نحو يدل على أنها امرأة منظمة ، مرتبة ، نظيفة ، عملية ، وسريعة : كلها سمات الأذكياء وفق ثقافة المنزل الصغير .

- أرأيت ؟ دماغها أنشف من البللور .

لايقطـــع الماس إلا الماس ، لا يفلَ الحديد إلا الحديد ، لكن الزجاج يتكسر إذا خبط بحجر .

لم يهـــتم أحد باصلاح زجاج ترابيزة السفرة المكسور . وظل هكذا مدة طويلة على مرأى من الجميع ، الدليل الدامغ على نوعية الذهن الذى يســـكن هذه الدماغ . ذهن لايعرف الحساب والقدرة على حل مسائل الحساب هى أكبر دليل على توقد الذهن وذكائه . كل الأشياء الأخرى : القصـــص والـــروايات . الأفلام والمسرحيات . التاريخ والشعر والرسم والتصـــوير هى أشياء يتسلى بها من يعرفون الحساب بعد أن يكونوا قد فـــرغوا من أشياء العالم المهمة ، الجدية . هي مهربى الوحيد . هناك يصنع المـــرء لنفســـه عالما لاتنشرخ فيه زجاجات ترابيزة السفرة . ولكن حتى هـــناك عرفت أن الزجاج قد يصنعون منه أجراساً عظيمة تفرق بين من يعـــرفون الحســـاب ومن لايعرفونه . الحساب هو الفارق اذن . فعلمت نفسى الحساب الوحيد المتاح وقتها . الحساب هو يوم الحساب ، كما فى

درس الديـــن . يوم الحساب يمشى الناس على شعرة ، فمن كان طيباً ، وقع فى الجنة ، ومن كان شريراً وقع فى النار . أصبح كل شغلى ألا أقع . وكان الحساب كل يوم . لكنهم بالطبع لم يعلموا أننى فهمت أن الأعشار والكسور ، لاتصيب الزجاج والبللور وأن مايصيبها هو الأحجار . وأننى رحـــت أعـــنى بالحجر الذى بداخلى ، حتى أنى كنت أنام وأشعر بثقل دمـــاغى على المخدة وأتحسس وجهى وأعلم أنه فى النوم يتحول إلى وجه تمثال حجرى : ميدوزا . عند الصحو كنت أخاف أن تقع عينى عليهم ، فـــلم أعد أنظر فى عينى أحد . كنت أظنهم لم يلحظوا حتى علمت أنهم كـــانوا يظـــنون طيلة الوقت أنى كنت أخجل من أن أنظر لأحد فى عينه لكنهم لم يقولوا كيف فسروا ذلك .

شـــق الأوقـــات الآخر ، شغف مترقب يملأ كيانى . حدث مثير جداً عـــلى وشـــك الوقوع ، أياماً بطولها ولا شئ يحدث . فقط هذا التوقع المشـــوب بالاثارة . الأيام عادية . أصحو فى السابعة والنصف . المدرسة عـــلى بعـــد خطوات . أغسل أسنانى وأمشط شعرى وأعقد الكرافات وأدخـــل قدمـــى بســـرعة فى الحذاء الأسود الطرى . السندويتشات ، والشـــاى فى انـــتظارى عـــلى ترابيزة فى المطبخ . آكل بسرعة وأقبلها بســـرعة ، دادة آمنة ، وأمى فى الخلفية فى مكان ما ، عندما أفتح الباب تحضـــر وتقـــف حـــتى يصل الأسانسير . لا أسمع لأمى صوتاً لكن آمنة واضحة وقوية :

- بايباى ، بايباى . . . يا باى ، خلصينا بقى .

الأيام عادية ، لماذا اذن يدق القلب بهذا العنف . شئ مثير جداً على وشـــك الحـــدوث ، ولاشئ . فقط الانتباه التام والدقة والحرص فى كل الأمـــور ، لا الـــزيادة ولا النقصان . أمشى إلى المدرسة وقد فتنتنى حافة الرصـــيف . تعد بالتفوق فى التمرين . هو رصيف واحد من أمام بيتنا ، يلـــتف فى نصف دائرة كبيرة ويمر على عمارات عديدة ، ولكنه رصيف واحـــد فى نهايـــته المدرسة وعم عثمان البواب النوبى الضخم . أصل إلى المدرسة وأنا أسير على حافة الرصيف احكاما فى التدرب على الانضباط. وفى المدرســـة أكـــتب الـــدروس فى خط فائق الدقة . ولا أسمح لنفسى باســـتعمال "الأستيكة" ، وفى نهاية كل حصة توبخنى المدرسة على البطء ولاتثنى على نظافة ونظام الصفحة ولا تلحظ انعدام الأخطاء . أعالج هذا الفـــزع الـــذى حل وسكن كيانى بالحرص واعتبار كل التفاصيل. هذا الخـــوف الـــذى يشـــملنى أوقن أنه خوف من الخطأ ، وامكانيات الخطأ لا حصـــر لها . لا حصر لها على الاطلاق . ولا يلحظ أحد ، ولا يتذكر أحد سواى .

* * *

كل ذرة فى الجسد تتناحل تحت وطأة الدوران السريع المخيف حول نواتها . يكاد جسدها ينفرط ويتبعثر تحت وطأة كل هذا النشاط .

تعود إلى البيت بنفس الخوف الذى تركت به البيت فى الصباح ولكن فى طريق العودة تتبدل أشياء . لا تستطيع السير على حافة الرصيف أكثر من بلاطتين . ويداخلها الشعور بالنشل ، فيخفق قلبها أسرع وتشعر أن خلاياهـــا تستهلك نفسها ، وفى أذنها يطن صوت مس كليفر وهى تقرأ وردزوورث ، يغـــلفها فى سحر موسيقى الكلام ، ويدق قلبها على وقع القصـــيدة ثم يتسارع دون سبب واضح . تكاد تجرى بأقصى سرعة حتى تصـــل إلى بر الأمان . هناك أمها وآمنة وعم عبده الطاهى ، سيفهمون . تقفز على سلم العمارة درجتين بدرجتين ، وتفتح باب الأسانسير ويدها تـــرتجف ، تصـــل إلى الدور الثالث وروحها تسوخ وتنسرب إلى ساقيها وتصـــل إلى باب شقتهم وتدق الجرس ، الخوف الآن أقوى من الحرص ، فـــتركل الـــباب بقدمها حتى يسرعوا . وعندما تفتح لها آمنة لاتبتسم . وجههـــا معقود على تكشيرة بشعة وفى عينيها نظرة غضب ، بل مرارة . ويعلو صوتها متهماً بلا مبرر :

– اتفضلى غيرى هدومك ، واغسلى وشك . أمك عند "الكوفير" وساياتى لايصة ، والناس زمانهم جايين على الغدا .

فاعـــتذر لهـــا . عم كنت أعتذر؟ لا أدرى سوى أنه من المهم جداً ألا تعـــلو الأصوات . الهدوء هام جداً وإلا حدث شئ ولم ألتفت . أرمى ذراعـــى حول عنقها توسلاً لكنها تنفض ذراعى وتزداد تكشيرتها وتقول فى صوت أعلى :

- يا شيخة روحى كدة وانتم ما وراكوش إلا الهم .

أبتلع كل هذا ، وأذهب لأبدل ملابسى ، والطنين فى رأسى يتصاعد. لم تقل شيئاً واحداً يدعو إلى إجابة . أنتظر وأراقب .

* * *

بعد قليل تحضر أمها ، وتبدأ جلبة الاستعدادات الأخيرة قبل وصول الضيوف . أمها فى "الأوفيس" تملأ آنية الزهور فى عجلة ولكن باتقان تام . أمها تلهث قليلاً وعندما تدخل عليها الفتاة لاتراها بداية ثم تسأل :

- ماعندكيش بلوفر تانى غير اللى انت لابساه ده؟

رأسها مغلف بطنين ينبع من داخله ويصم أذنيها ، ولاتدرى أنه كلما أسرع القلب وشعرت أن جسدها يستهلك الحياة فى سرعة البرق وربما أسرع ، ولاتستطيع تحمل كل هذا ، إنها وحدها لا تستطيع التحمل . ها هى دادة آمنة تغنى الآن فى المطبخ وقد تبخر غضبها وأمها ترتب الزهور باتقان رغم ضيق الوقت ويصل أبوها مطمئناً واثقاً ، ومعه وفد أجنبى على غداء مصرى أصيل : دقية ورق عنب ، أرز بالخلطة ، ديك رومى فى الفرن وبصل محمر ، وقبل ذلك سمكة كبيرة بالمايونيز ، زينت حتى تبدو سمكة تماماً ، فى عينيها زيتونتان سوداوان وحيث كان فمها جزرة ملتوية على ابتسامة سميكة لا مبالية . لابد أنه كان هناك أيضاً لحم وخضروات وبعد كل هذا كان هناك الفراولة بماء الورد والسكر

البودرة، والشاى بالنعناع فى دورة وراء دورة فى أكواب كستبانية صغيرة يطـوف بها محمود السفرجى فى جلبابه الأبيض الشاهى وعمته النوبية ، ولم يكن هناك نبيذ ، فقط عصير الرمّان الطازج .

يتحدثون بسرعة ويفرغون من أكلهم بسرعة ، ويخططون لبعد الظهر وربما حتى للغد أو بعد الغد بسرعة . شُعل من النشاط والهمة .

وعـندما تدخل الحمام بعد أمها لتغسل يديها ترى أمها تنشف يديها فى فوطة شاهقة البياض بنفس الهمة والنشاط . تنبعث منها رائحة برتقال مع أن الغداء لم يكن به برتقال . تفتح فمها لتسأل لكنها تغلقه سريعاً فقد فهمت فجأة وكأن أحدهم همس لها : أن للروائح أسراراً .

لمـاذا لا ينضـبط لديهـا ما يبدو منضبطاً لديهم ؟ هل يعانون من خلاياهم كما تعانى ؟

تدخـل إلى غرفـتها وتأخذ الحبل من فوق صندوق اللعب وتبدأ فى الـنط . هذا كفيل بالتخلص من هذا الشعور الذى يلتهمها . ثم تدخل آمنة وتنهرها :

– أبوكى نايم .

وتضـيف : نط الحبل فى البيت يجلب النحس . مافيش وراكى "هوم ورك" ؟

مـــافيش وراكـــى غير الهم يا آمنة . ما إن تصعد الكلمات إلى حافة لسانها حتى يعاودها الشعور الخفى بالذنب .

كانت أمها تقول عن آمنة أنها غبية . مع انها كانت نشيطة ودؤوباً ، ونظيفة . تقول أمها أيضاً أنها عنيدة عند البغال . وكان ذلك يؤلمها لأنها كـــانت تحب آمنة على الرغم من سطوتها وسلاطة لسانها . عندما يخرج الكبار كانت آمنة هى التى تملأ العالم ، تجلس على الأرض فى غرفة النوم وتحكى :

– الله يســـامحه أبويـــا بقى . كان يبعت ورايا ناس يجيبونى من على السكة وأنا رايحة المدرسة . أنا لو كنت اتعلمت كنت بقيت حاجة تانية . أى والله يا ست كيمى .

* * *

تـــرتفع الذكـــرى من صدى الصوت فى جنبات كيانى ويعتصر قلبى شرايينه ويدفع بالدم إلى دماغى وأندم لها . ليتها لا تقول "يا ست" شئ ما لا يستقيم مع هذا الذى تقول الآن ونتطيبتها عندما فتحت لى الباب وأنا عائدة من المدرسة . كيف يتسنى لها أن تتحول هكذا ، من طاغية قاسية تصـــدر الأحكـــام بـــلا رأفة إلى هذه الغلبانة التى "تتصعَّب" هكذا على ما آلت إليه حياتها تستمرئ الذل فتنادينى أنا الطفلة : "يا ست" . أفضلها كـــثيراً عندما تشتمنى وكانت لا تشتمنى إلا بالفرنسية التى تعملت منها ما يكفى الشتيمة : يا باروسوز ، يا ميشانط ، وأسرع لمواساتها :

- ولا يهمــك . انت فاكرة الحكاية صعبة قوى؟ أنا أعلمك القراية والكتابة .

فتضحك : يووه ، بقى بعد ما شاب ودوه الكتاب .

* * *

كــان بيدها كتاب . الأساطير الاغريقية الرومانية ونبتيون إله البحر وخلفه الأمواج على هيئة أحصنة شعورها تتسابق ، وتلتوى وتتكسَّر عند أرجل الإله ، ثم ديانا إلهة الصيد ، بيدها حربة وفى قدميها صندل سيوره تلتف حول الساقين فى رقة . تكاد كيمى تشارك آمنة الكتاب ، وتحجم فى اللحظة الأخيرة ، بعد أن تكون يدها سبقتها قليلاً ، لكنها امتنعت أن تدعوها : شوفى .

ولم تــلحظ آمــنة لحسن الحظ ، فتهم بالوقوف ويكون ذلك ايذاناً بميعــاد النوم . تخرج وتقفل الباب من ورائها ، وأتسلل أنا من سريرى ، جســدى ينفض عنه النوم فى كل نبضة . أود لو أمسكت بشئ لا أدرى ما هو . العالم بأسره ربما . إما العالم بأسره وإما لا .

أفــتح الشــنطة وأخرج المقلمة وأفعل شيئاً محرماً : أقطع ورقة من منتصف كراسة الرسم . لو قطعت ورقة من آخر الكراسة سوف تسقط الورقــة الــتى تكمــلها من بداية الكراسة وتؤنبنى مسز فهمى . أوراق الكراسات عهدة مقدسة ، لا يمسها سوى من هم ليسوا على نفس القدر مــن احــترام الــنفس وحســن التربية ، أمثال لمياء التى كانت تحضر

فى الصـــباح وكأنها نامت فى ملابس المدرسة واستيقظت بها فجاءت دون أن تغسل وجهها أو تمشط شعرها . الدقة والنظام والنظافة ، الصرامة مع الـــنفس ، كـــلها تبعثرت أمام سحر الورقة البيضاء الكبيرة المستطيلة . فتحت الكراسة من المنتصف ورأيت الدبابيس التى تعوق اكتمال الصفحة وتقسمها اثنين ، عن يمين وعن يسار ، فى النصف الدبابيس تلمع ، قلبى يـــدق بسرعة أعنف . هأنا على وشك ارتكاب المعصية . لكن الأغواء أكـــبر . وأزهى وأحد من العاقبة . وخطر الاكتشاف المقيم فى المطبخ ، فى الأنتريه ، فى الصالون : أيا من كان ، من الممكن أن يدخل هكذا دون أدنى تحذير ، وتكتشفين وتصبحين " لمياء " الحيوانة فى نظرهم إلا أن القلم رغماً عنى راح يرسم . درس البارحة عن الذرة ونواتها :

– الآن نستطيع تفتيت الذرة . قال أبى ، ثم أضاف :

– الفضل لأينشتاين . وابتسم ولمعت عيناه الهازئتان ، ثم باغتنى :

– تلت التلاتة كام ؟

تتـــبدل الأهلـــيجات الثلاث على الصفحة ، وتتحول الذرة ونواتها وبـــروتونها وإلكترونها تحت سن القلم إلى فتاة صغيرة لها عينان ضيقتان وشـــعر أجعد ، ضُفِرَ ضفيرتين رفيعتين . حول جبهتها منديل أحمر باهت ربمـــا ، بـــه خـــرز . تلبس جلابية مزركشة ، وتمشى على الترعة حافية القدمـــين . ما إن تبعد قليلاً عن البيت الذى تركته خلفها حتى يخرج لها مـــن بـــين أعواد الخوص رجلان ، يكتفانها ويرجعان بها إلى البيت وهى تصرخ :

– سيبونى ! سيبونى أروح المدرسة !

وعلى الصفحة المقابلة ، صورة فتاة ترتدى تونيك أغريقيا هفهافاً قصيراً جداً ، ساقاها ممشوقتان ، تلتف حولهما سيور صندل رقيق ، شعرها مرفوع إلى أعلى وبعض خصلاته المتموجة تتناثر حول الرأس الصغير ، أنفها حاد ولها شفتان ممتلئتان مرسومتان فى دقة : ديانا ربَّة الصيد .

* * *

تغلق كراس الرسم وتقطع الورقة المسروقة إرباً ، تضعها فى كيس من الورق كان ملقيا فى سلة المهملات تحت مكتبها ، وتعود إلى السرير ، لكن صوت آمنة يعاودها ، فيعاودنى .

– يومها وقعت فى الترعة وأنا باهرب منهم ولما أمى شافتنى خبطت على صدرها وصرخت فيهم . أنا ماحدش يمس شعرة من راس بنتى طول ما انى عايشة . بس بقى وبعدين هى كمان قالت بلاها المدرسة ووجع الدماغ . ماتت صغيرة ، كنت أطول منك حاجة بسيطة كدة . حلفت ما اقعد لهم فى البيت . هربت وجيت على مصر ، ومن يومها .

لكنها تنتفض فجأة :

"والنبى انت فاضية ومقعدانى جنبك أحكيلك ، أوعى كده ياشيخة ، وانت تعطلى المراكب السايرة ، أنا ورايا شغل" .

ولا تـــتركنى مع ابى رأيت الباب يغلق وراءها . وتظل تحكى ، أكاد أراها رأى العين ، حتى الآن وأسمعها تحكى . حكاية الملك الأطلسى . ولما تنتهى تقول : "بس وعليه ، كنت هناك وجيت ، حتى العشا ماتعشيت" .

لا أذكـــر أنى رأيتها تأكل إلا فى مناسبات ضئيلة جداً . كانت تأكل وكأنهـــا لاتأكل . تعيش وسطنا ولا أعلم متى تدخل الحمام ، متى تبدل ملابســـها . أصحو فتكون فى كامل هيئتها وأنام وهى فى كامل هيئتها . وتشـــع منها دائماً رائحة الصابون وكولونيا ٥٥٥ . أذكرها الآن وكأنها ماتت .

أخاف أن أكون قتلتها ؟ لو كتبنا الناس ، يموتون ؟

ولكـــن كيف يتأتى لى التأكد . كيف يصنع المرء لنفسه حدوداً يعلم بمجـــرد ذكرها أن له كياناً واضحاً خاصاً ، مايحتمل وما لايحتمل . كيف يحتمل الناس الكتابة فما بالنا بالحياه . أنا لا أحتمل الحياة . الحياة كثيرة جـــداً . وجميـــلة جداً ، وليست لى حدود تفصل بين ألمى وألم الآخرين . أنـــا آمـــنة وأنا حكايتها وأنا البنت فى حكاية الملك الأطلسى ، أنا أيضاً عـــندما كان يسافر أبى ويسألنى عما أريد كنت أقول : سلامتك وتلف عمامتك بيدك وترجع البيت زى عادتك .

كذب ، فأنا كانت لى مطالب لا تنتهى ، وكان يرجع بالقائمة طويلة وقد ترجمت إلى أشياء فعلية : اسطوانات ، ومايوهات وكريمات للشعر ،

وشـــرابات . لكـــن في مكـــان مابين عيني وذهني ، كانت تلك الأشياء عندما أكتبها له على ورقة بيضاء تشبه ذلك الطمع ، النهم ، المتطلع إلى الامســـاك بما لايمكن ادراك كنهه . وعندما تتحقق آمال قائمة السفر ، كـــنت أنظـــر إليهـــا مبعثرة من حولى وأشعر بخيبة الأمل وأدعى الفرح والســـعادة . حينئذ كنت أتأكد أنى انسان ناكر للجميل ، منافق ، يمثل الودَّ والحبَّ والسعادة والامتنان ويخدع .

أنا الملك الأطلسى ، مثله ، فى يوم مرضت مرضاً عضال . ولم يفلح فى شـــفائى كل أطباء المملكة وكما هى العادة ، وصفتْ لى وصفةٌ صعبة المنال جدا . كان السبيل الوحيد لشفائى هو أن تأتينى فتاة طاهرة القلب والفـــؤاد واللســـان . لم تـــتمنى الشر فى حياتها لأحد . وكانت بالطبع مكروهة من الكثيرين فى أوقات ضعفهم وجشعهم . فاذا سأل أبوها قبل السفر بناته عما يريدن منه لدى عودته قالت الكبرى :

– عاوزه هون أدق بيه فى اليمن يسمعوه فى الروم .

وقالت الوسطى :

– عاوزه مرايا أشوف فيها قفايا .

أما تلك الفتاه فكانت تقول :

– عايـــزة سلامتك ، وترجع البيت زى عادتك ودايما تلف عمامتك بيدك .

بقية الحكاية كانت مخيفة جدا . فالملك الأطلسي بعد أن تشفيه الفتاة الـتي تنكرت فى زى رجل حتى يسمح لها بالتجوال وشفاء الملوك يصر عـلى أن يتعرف على الهوية الحقيقية للطبيب الذى لم يطلب منه مكافأة وانما طلب ألا يسعى إلى معرفة شخصه الحقيقى وجعله يعد :

لو أنك فى يوم قابلت أحدهم وكدت أن تقتله وقال لك وأنت ترفع يدك إليه بسيفك :

- وحياة طبيبك ماتمد ايدك عليا . إرجع عنه ولا تمسه، ووعد الملك.

لكن الفضول أرقه ، كما يحق للفضول وتوصل الملك إلى البيت الذى قيل له أن الطبيب يقطنه . فى نفس الوقـت الذى توصلت فيه الأختان الكبريان إلى معرفة ميعاد زيارة الملك ، كما عرفتا أن الملك لن يجئ البيت كمـا يجئ الـناس العاديون من الباب ، ولكن من البالوعة . وبذا قامتا بكسـر كـم لا بأس به من الزجاج وتأكدتا من حدة شفراته ، وملأتا بالوعـة الحمـام بالـزجاج ، حتى إذا ما وصل الملك وحاول الطلوع من البالوعة نال من جسده الزجاج المدقوق . شظية صغيرة تدخل جلده ثم تمتـد كجدول ماء يشـق له طريقاً بصعوبة فى البداية ثم بسرعة أكبر ويظل يتفرع ويتفرع حتى يغطى جسده كله الدم .

ومع هذا كانت الحكاية تنتهى نهاية سعيدة كل مرة ولم يكن بها غيلان مـثل الحكايات الأغريقية ، ولم يكن بها أناس يضعون الأطفال فى الفرن

كمـــا فى حكاية هانز وجريتيل ، ولم تكن الأخطار تحيق بالصغار الطيبين مـــن قبل كبار أشرار كما فى بلانش نيج ، ولكن طلوع الملك الأطلسى مـــن البالوعة ، جعل من البالوعات والحمامات أماكن تسكنها الأشباح والشـــياطين . وجعـــل نصـــائح آمنة فيما يخص الحمامات عين العقل ، وجوهر التفكير السليم :

– ماتغنيش فى الحمام .

– ما تبصيش لوشك كتير فى المرايه .

– ما تتشطفيش بأيدك اليمين .

لم يخطـــر على بالى أن أسألها لماذا . ولم أسمع أحداً يعارضها فى هذا ، لم أر عـــلى وجه أبى ابتسامته الهازئة المعتادة ، ولا ضحكت أمى وقالت "كـــلام فارغ" ، وأدرجت أنا حكاياتها وأوامرها ونواهيها فى الخانة التى كنت أدرج فيه ما تقوله عندما تنتهى من الحكاية :

– كنت هناك وجيت حتى العشا ما اتعشيت .



المرة الأولى ؟

ثلاثـــة من الأطباء يرتدون ملابس الأطباء والساعة العاشرة مساء . يقفون فى بهو فخم ، أرضيته من الرخام الأسود والأبيض والطوبى . وسط دوائـــر الألوان ووسط البهو المستدير طاولة من الماهوجونى ، عليها تمثال لجوناثـــان ســـويفت . أخرج أحدهم ورقة وقلما وطلب منى أن أوقع فى خانـــة فى أســـفل الصفحة . أعلى الصفحة قرأت بالأسود فى بنط هادئ وواضـــح : مستشـــفى ســـانت باتريك للأمراض النفسية والعصبية . فـــأحجمت عن التوقيع وقد أمسكت بالقلم . وفجأة تذكرت فقلت لهم فى صوت يخجل من أن يسمع ، وبالانجليزية لأنى كنت أعلم على نحو ما أنهم لايعرفون غيرها :

– أنا لاأعرف القراءة والكتابة .

ولم يـــبدو على أى منهم ما يدل على أنهم سمعونى ، فكررت الجملة بشـــكل أوضح . نظر لى الرجل الذى كان قد اصطحبنى إلى هذا المكان وابتسم . وبدت لى ابتسامته هازئة متعالية . تحقر من بنات الفقراء الغلابة الـــلواتى لم يكـــن لهن يد فى شئ ومنعوهن من الذهاب إلى المدرسة . هز الآخرون رؤوسهم وجذب أحدهم كرسيا من أقصى البهو وقال متنهدا :

– يبدو أنها ليلة ستطول .

شــيء مــا جعلني أحدس أنهم لا يصدقونني . أنه عليّ تبرير شيء ما . ولكــن لأنهم لم يسألوني رأيت أنه من الأفضل ألا أبدأ بالكلام . تداولوا كــثيراً فيما بينهم ، ويبدو أنهم اتفقوا أن الاستاذ الذي جاء بي إليهم هو أقدرهم على اقناعي بالتوقيع .

– اسمعي ، قال وناداني باسم تعرفت عليه ولكنه لم يكن له وقع اسمي في اذني .

أنــت متعبة ، ومرهقة وربما لم تنامي من أيام . أنا أستاذك وان كنت لا تــثقين في هــؤلاء وأشــار إلى الأطباء الذين وقفوا عن بعد يرقبون ، باســتطاعتك أن تــثقي فيّ . لقد جئت بناء على طلبك . أنت اتصلت بي وقلت أنك على غير مايرام .

هــززت رأســي نافية ، لكنه أخذ يكمل حديثه كأنه لا يلحظ أني اعترض على مايقول .

أنــا أمية لا أعرف القراءة والكتابة . أنا هنا في هذه المستشفى لأني اكتشــفت بنفســي الحقيقة التي خبأها عني كل هؤلاء الناس طيلة هذا الوقــت . في الــلحظة الــتي تسبق استيلاء الضجيج على الدماغ وقبل أن تتلاشى الرغبة في النوم ، ويحل محل التثاؤب خوف عظيم من النوم ،

ثم الاستسلام للقدر : للحقيقة التى تبدأ كلمة صغيرة تدق جدران الكيان إلى أن تستولى على كل الأفكار . تضم إليها بفعل الكلام السحرى كل الكلام وكل الأوقات من الزمن . ترشح عنها الزيف ، والمجاملة فلايتبقى إلا خلاصة الحقيقة الدامغة . وقتها يكون الذهن متوهجاً تماماً ، والحياة كأبدع ماتكون . تنجلى الحقائق واحدة تسلم الشعلة للأخرى ويبرق الفهم ، حين يكون الفهم قد كف تماماً وهربت الكلمات ، وتسقط أقنعة الزيف قناعاً قناعاً وأود لو أصرخ فيهم ، لماذا لايفهمون ، المسألة أبسط من كل هذا التعقيد . أنا هربت من بيت الرجل الطيب الذى كنت هربت إليه من بيت أبى بعد أن ماتت أمى . هناك حاولوا تعليمى القراءة والكتابة لكنى كنت غبية ، وعنيدة عند البغال ، فلم أتعلم شيئاً . لكن أبى الذى ربانى وسط بناته وكأنى منهن ، كان يشفق على من الحقيقة ، فاتفق مع كل هؤلاء الناس واحداً واحداً وواحدة واحدة ، حتى يخبئوا عنى هذا الأمر وأظل موهومة بقدرتى على القراءة . لكنه بالطبع لم يكن ليقدر على التحكم فى كل الناس وهو على هذا البعد . فعل كل ما فى وسعه . هذا الذى كنت أظنه قاس ، لاذع . ألم يكن يلحظ أن عينىَّ ضيقتان؟ وأن جبهتى صغيرة جداً؟ ألم يكن يرى مدى شبهى بالقردة؟ لماذا ظلمنى هكذا ، وهو يعلم أننى شئ لم يكتمل على سلم التطور؟ لكن الله كريم . كشف لى الحقيقة حتى لا أظل أضحوكة للجميع . حتى عمال المكتبة عرفوا وفهموا حتى ألهم وكّلوا واحداً منهم ليهزأ منى وهم

يتخيلون أنى لا ألحظ . يرسم على وجهه إمارات التخلف العقلى ، ويمشى مشية المعوقين ، وتكاد عيناه تصبحان مثل عينىَّ ، عينى قرد ، خائف يحيط جبهته شعر الغباء الكثيف . لكنى لا أكرهه ولا أنقم عليه . لقد أتاحت لى مزحته القاسية الفهم أخيراً . وتجلت أمامى الحقيقة المرة ، وعلىّ تجرعها . والتقبل . الحقيقة التى خبأتها بكل الحرص كل ذلك الوقت . ولم يخطر لى أن آخرين يعلمون إلا فى القطار من بلفاست إلى دبلن . عندما غادرت القطار كان العالم قد اتخذ له بعداً جديداً وصار نقياً واضحاً ، مشطوفة حوافه كأنها بللورات كريستالية تكثفت فيها صور الحياة وكانت الأصوات قد سكتت فى دماغي تماماً . فسمعت صرخة مدوية وانتفض قلبى كأن أحدهم مات . ضحكت ، لنفسى أطمئنها : لابد أن أزميرالده وايلد تلد أوسكار . خطوت نحو بيتى المقابل لمحطة القطار وأخرجت مفاتيحى متجاهلة مصدر الصوت . كان الضجيج من قبل قد تقطر عن فكرة واحدة مرعبة : ان هذا الذى أحياه ليس حال كل البشر . حسى وادراكى للحياة ليس ككل البشر . وبدأ شئ مخيف ينسج نفسه ببطء ويتعملق نحوى ، موجة قارية رهيبة تزحف تجاهى ، تبتلعنى تماماً ويعم الظلام ، والسكون .

لحظات الولادة فى الأدمغة التى بها عيب كيميائى لاتتراكم فى ذاكرة دروب النيورونات . لو تخيلنا شيئاً شبيهاً ربما كان صياداً يترف كل مرة

ينســـلُ مـــن بـــين يديـــه الخيط إلى البحر بالطعم حتى بعد سنين طويلة مـــن الصـــيد . الأنســـجة رهيفة . تترف كل مرة كأنها أول مرة تواجه ما يستدعي الترف . أنسجة لا تتكلس . يترف قلبي الآن وكأني أرى آمنة أمـــامي تمسك بالجريدة ، تدقق فيها ودموعها تنسال في صمت . درس الحساب يوصمني : هي تبكي لأنك لم تعلميها ويتفرع الشرخ ، يتفرع ، يدمي ويطالب بالثأر . أرفع يدي بالقلم لأهوى به على الصفحة البيضاء لكن صوت آمنه يقاطعني متوسلاً : وحياة طبيبك ، فأكفُّ خوفاً عليها .

ذاكرة تلك الأنسجة ضعيفة أو هي ذاكرة من نوع مختلف ، لاتفرز أنماطـــاً دفاعيـــة ، أو أن الذاكرة لسبب غيرواضح تُشَلُّ ولا يستوعب الكيـــان سوى ألم اللحظة ، التي ينصهر فيها تماماً فيركل كيفما اتفق أو ينـــتكص ، يعود رضيعاً تركه أحدهم بلا مأوى ولا سند في غابة ملؤها الأخطـــار . هي ذاكرة الألم . ألم كل البشر ذاكرة التوحد والوجود ، قبل أن أصبح أنا أنا وأنت أنت : ذاكرة الحب ووجهه الآخر ، ولا شئ بينهما . هكذا تنقلب الشفقة على ذاتها ويصبح التنفس ذاته خطراً محدقاً، فما أدراني ما يترتب عليه . وما أدراني أى عقاب سيحل من حاصل جمع الاهمـــال أو التكاســـل ، أو عدم الانتباه بعد فوات الأوان . تحت وطأة الشـــك والحدب على فعل ما هو أصح ، وليس هناك مرشد ولا دليل ، تتوهج الروح وتنطفئ ، تتقدم وتتراجع . لاتجرؤ على استكمال حتى فعل التنفس ، تخاف أن يتسبب أى شئ تفعله فى موتها أو موت غيرها وتعلم

فقط أنها تذهب طيِّعة إلى أحضان الظلام لو كان فى ذلك خير ما ، لو علمت لماذا عليها أن تموت لماتت . فى بداية أخرى سوف يتبدى لها أنها تعلم وعندها لن تتردد قبل الاستسلام ، والكتابه .

هل ولدت هكذا؟ تلك الفتاة التى جلست بجانب الأستاذ العظيم ر سطحبها فى هدوء إلى حجرة الاستقبال فى مستشفى سانت باتريك ، وإذا كانت ولدت هكذا كيف لم يلحظوا؟ أم تراهم لاحظوا وكانوا يتكتمون؟ أم أنها فى بيتها وبين الأهل ، فى لغتها ، كانت تلك الأعراض تفسر على نحو مختلف؟ عندما تحمر وجنتها من نشاط داخلى يدوِّخها فلا تكف عن الضحك والحركة ، وعندما تنهد عزيمتها وتخرس شهراً بأكمله؟ بماذا كانوا يفسرون تسارع خفقان قلبها التى كانت تشعر به يكاد يتوقف من شدة ضرباته ، ثم السكون التام ، تليه ردود الأفعال العنيفة غير المبررة والشك فى طيبة المعانى من الكلمات ، والشك فى كل النبرات ، مهما كان يراد بها الطيبة ، الكلمات ، الكلمات هى شرور الأيام الصغيرة والشرور معظمها صغيرة .

لم الحظهم وهم يصنعون من حولى جرساً كبيراً من الزجاج السميك . لم ألحظ . لأنهم صنعوه صناعة عجيبة ، كلمة . كلمة . كل كلمة بللورة كريستالية صغيرة مشطوفة بحذق ومهارة ، لها جرس وموسيقى معدنية حادة . وكان يتطاير من تلك العملية الكلامية شظى يخزُّ جلدى .

مـــا الـــذى كان يؤذيهم منى ليعزلونى هكذا؟ لماذا يتسامرون فى يسر ، ويتضـــاحكون ويتفهمون بعضهم البعض وأنا لا . ولماذا أشعر بكل هذه الغـــربة وســـط أهلى ، وأهلى الناس جميعاً . قتلتهم كلهم فى ثلاثة أيام؟ كتبـــتهم ثم مزقـــتهم عندما استولت أنفاسهم على هواء الغرفة وابتلعته ولم يعد لى متنفس فى المكان .

* * *

دلفت السيارة الحمراء العتيقة إلى درب الحصباء والتوى سيرها حتى وصلت إلى باب المستشفى الفخم .

بـــين طيـــات مشاعرها الملتبسة تجاهه ، الخوف والرهبة والتطلع إلى رضاه عن كتابتها ، كانت تعلم أنه الوحيد الذى يعتمد عليه فى مثل ذلك الظـــرف . هو جلادها الذى كان يدعى أنه لم يسمعها تقـــول له صباح الخير فى فناء الكلية أو المطعم . كان تجاهله هذا يؤلمها ولا تدرى له سبباً فالمفـــترض أن الأساتذة يعنون بالطلاب ، ولم تكن تعلم أنهم من المفترض ألا يعـــنون بالطالـــبات . ومع هذا أو ربما لهذا فاز وحده بثقتها فى تلك اللحظة دون كثيرين ممن كانوا يترددون .

- آمنة متعبة جداً يابروفيسير .

- من "آنا" ؟ قال .

- أنت تعلم . هى متعبة جداً وتعتقد أنها فى حاجة إلى المساعدة .

- فهمت .

فى ظــرف دقــائق معدودات كان يقف أمامها على باب غرفتها ، اصــطحبها من يدها ونزلا إلى سيارته التى ركنها فى الممنوع وجاء بها إلى هنا .

فى اللحظة التى وضعت فيها اسمى فى الخانة أسفل الصفحة ، شعرت أننى قمت بعمل لا يدرك فداحته إلا من قتل . من قتلت؟ ماذا كنت أفعل طيــلة ثلاثــة أيام كاملة ، بعد أن ابتلعتنى الموجة العملاقة؟ وانتبهت أن الأصــوات سكتت . وظهرت الفكرة جلية لا لبس فيها لها جاذبية ألف ثقب من ثقوب السماء السوداء : لو كتبتهم يموتون ولو لم أكتبهم يحكم عــلىّ أنا بالموت . قرار الحكماء لا رجعة عنه . من يتلف هدايا الحكماء مصيره الموت ، ولأن الحكماء لايقتلون ، عليك أن تنفذى الحكم بنفسك فى نفسك .



١٧ وستلاند رو

المـــترل رقم ١٧ فى شارع "وستلاند رو" هو المترل الملاصق للمترل الذى ولد فيه الساخر اللوطى أوسكار وايلد . كبش فداء الامبراطورية وظـــلها الظليل . المترل تسكنه أربع عشرة طالبة دراسات عليا . يفضى فناؤه الداخلى إلى ممر ، به باب صغير يدخلك إلى حرم الجامعة مباشرة . أقصر الطرق من وإلى المعامل والمكتبة . فى نهاية الممر على اليسار ، حانة: دبلن مدينة الحانات والكلام الشاطر .

فى الـــدور الأول الحجرة رقم ١٤ . هنا سكنت ولمدة أربع سنوات متـــتالية ، امرأة غريبة الأطوار . لاتسعى إلى أحد ولا يسعى إليها أحد . تحـــبس نفسها فى حجرتها ولاتغادرها سوى للرد على تليفون يجيئها كل يوم فى الحادية عشرة مساء من بيروت . أيام الأثنين تصلها باقة ورود فى الصـــباح . بـــريدها كثير ، لا يمر يوم دون أن تلتقط من على الطاولة المخصصة للبريد فى البهو خطاباً أو اثنين . تختفى كل شهرين أو ثلاثة لمدة تتراوح بين الأســـبوع والعشـــرة أيـــام . بقـــية الوقت هى فى حجرتها

أو فى المكتبة . لا تستعمل المطبخ ، ولاتنزل للفرجة على التليفزيون . كانوا فى البداية يحاولون تجاذب أطراف الحديث معها ، لكنهم مع الوقت كفوا . ربما بدت مستغنية عن الصحبة . أيام الآحاد تصحو مبكرة وتمشى إلى جرافتون ستريت تبتاع الصحف وتذهب إلى قهوة بيولى للافطار وشرب القهوة . امرأة متعالية ، تنتابها حالات من الدفء الانسانى ، فتنزل إلى المطبخ المشترك ، وتنشغل ببرامج التليفزيون ، وتضحك ملء رئتيها على لينى بينيت ، وتتجاذب الحديث مع أيا من كان ، وتطبخ وتسخر ، ثم فجأة تتراجع وكأنها نادمة أنها صنعت لنفسها الأصدقاء ، فتنفر وتسكت وتختفى أياماً طوالاً . أحياناً تذهب إلى الحانة ، لكنها لاتشرب الخمر ، وتدخن بشراهة . فى الحانة كانت تتحدث كثيراً عن جيمس جويس ، وييتس ، وديلان توماس وتسخر من نفسها : مملكة الرب، والمنفى ، كتبت لى تقول وتضحك على نكتة لايضحك لها سواها. وفى اليوم التالى لاتلقى التحية على أحد وتنهمك فى شئونها ، فى الحادية عشرة مساء يصلها التليفون المعتاد وتبدو راضية وهى تغلق باب الغرفة وراءها .

هناك كان المصباح بالكاد يطفأ . كانت تكتب ، ولايقرأ لها أحد :



أمثولة الوطن

علـــى الحـــائط خريطة المنفى . رأيت مثل هذا على حوائط أخرى ، لكنها كانت خرائط تستدعى الوطن . منهم من كان يعيد تركيب الوطن داخـــل جـــدران بيته ، وعلى الحوائط . يستحضرون مصر "بأشيائها" : مشغولات، أكلمة ، أوراق بردى ، تماثيل صغيرة ، وصور على الحوائط. كـــان ذلك فى لندن . لندن كانت مليئة بالمصريين . هنا لايوجد غيرها ، والأفارقة . فى البيت أمام المحطة كانت حيطان الغرف الصغيرة تعلق عليها صـــوراً مـــن جنوه وروما ، كانت هناك بلجيكا صغيرة فى احدى تلك الغـــرف . ودنمـــارك وصين ، وألمانيا . حتى غرفة مارى كانت بها صور لانجلترا . لماذا ظلت خريطة منفاها هى أبعد ماتكون عن الوطن؟

عـــلى الحائط جيمس جويس يضع يديه فى عصبية واضحة فى جيوب بنطـــلونه الواسع ، يقف أمام كوخ صيفى ، مستغرقاً فى التفكير ، عيناه غائمتان من وراء النظارة المستديرة وعلى رأسه قبعة صيفية ، يبدو متعالياً تعـــالى ضعاف البصر غير المقصود ويتجاهل صمويل بيكيت الذى نحت رأســـه الفـــذ مـــن كتاب ديردرى بلير الضخم . تحتهما بنات جوجان

الســمراوات يبتسمن لخُطّاب لايجيئون ونسخة رخيصة عن لوحة لامرأة صــينية ذات رأس مرتــبك . اسمهــا المرأة ذات الرأس المرتبك ، تنظر باستمرار إلى كارت بوستال عليه صورة يافطة اتجاهات فى منتهى التعقيد، تحمل أسماء ما لايقل عن عشرين قرية فى نفس الوقت : اليافطة حقيقية . ر كان هناك عجوز بعينين واسعتين رماديتين تحدقان يأساً وأسى نحو صورة لميناء صغير يحمل بحاراً لوَّحت وجهه الرياح المالحة بسمرة سميكة قاسية ، وكان البحار يستعد للرحيل فى قارب خشبى صغير ، لكنها لم تكن تعلم .

خريطة تتبدل وتعكس الحنين إلى وطن متخيَّل ، لا ينطبق ولا يتماثل ولا يستطيع الشهادة على وجوده أحد . وطن يعاد تركيبه حسب الحاجة وحدة الحنين . إلى ماذا الحنين؟ مكان جميل وفقير يملؤه الشجن . لايعرفه أحــد ممن تعاشرهم هنا ، ولا يهم أحد أن يعرفه . ولما كانت تضطر إلى تعريفه ، كانت ترتبك ، إذا تصادف وسئلت . ففى مثل تلك الأثناء كان عــليها أن تكــون هى هو . كيف يتحمل المرء مثل هذا؟ إلا إذا كذب أو لفق ، أو تشبث بعناد ، أو نسى ما جاء به إلى الغربة ولبث فى الغربة لايبحث إلا فى الوطن .

لمــا عاد دافنى ونيكولوس من ليبيا وأفاضا فى الهزء والسخرية ، ماذا قــالا حتى أنها اضطرت أن تقول : مصر ليست ليبيا وبعدها لماذا شعرت بــالذنب؟ ألأن لها جذوراً فى قرطاج ، وبعض أهلها يتفاخرون بأصولهم

الـــبدوية؟ مـــثال واحد فقط ، وما لم تسمعه من الصديقات والأصدقاء كـــانت الكـــتب ، وحتى الصحف أحياناً تمتلئ به . كتب القرن التاسع عشـــر . فى القرن التاسع عشر بالذات كانوا يقولون الحقيقة ويكذبون . كيـــف يواجه شخص واحد كل هذا التوثيق لأماكن تحيا فى الوجدان لغة حية وأحياء ، وتواريخ ليست فى كتب التاريخ ، أو هى ليست سوى فى كتب التاريخ . كيف يروى شخص واحد قصة وطن ويقول وطنى ليس ككل وطن ، ولا يقع تحت طائلة الكذب ، والمغالاة؟ الوطن البدء وأصل الأوطـــان ، تمـــزقت قصـــته وجرى بها الغرباء كل فى ناحية ، وقسمت أواصـــره على الكليات فى الجامعات وتبعثر بفعل نظام ديوى على أربعة عشر مصنفاً مثلما تصنف المكتبات

فى الحلم أو كأنه الحلم . وقفت أقرأ القائمة ، قلبى يكاد يتوقف من هـــول مافهمت عندما فرغ الاستاذ من محاضرته عن مصر . الاستاذ عالم متخصـــــص فى التاريخ ، ومن بين كل التاريخ : الشرق الأوسط . بجانبه شاشـــة ضـــخمة تنزل عليها صور ، يقف بجانب الشاشة وفى يده عصا طويلة يشير بها إلى الصور . عندما نظرت فى الورقة التى كان يدون فيها زميلى نقاط المحاضرة تعجبت من قدرته المدهشة على التلخيص :

مصـــر القديمة اختراع فرنسى من القرن الثامن عشر ، سرقه الألمان والانجليز واحتفظوا بشفرته فى المتحف البريطانى .

امبراطورية الأسكندر ، الوريث الطبيعي لحضارة أثينا الاغريقية التى هى أم النهضة الأوروبية وأبوها وأختها وأمها إلخ

امــبراطورية الــرومان ، حدث بربرى مؤقت لكنه زاخر بالفلسفة المسيحية الأوروبية القروسطية التى تمخضت عن التشييد القوطى البديع ، وكانت البوتقة التى انصهرت فيها النهضة .

الامــبراطورية الاســلامية حدث كذلك لايمكن نكرانه ، انتج فنوناً لم تعتد بتصوير الانسان – الامبراطورية العثمانية ، رجل أوروبا المريض . – امــبراطورية نابليون والتنوير . – امبراطورية بريطانيا العظمى وضياع الهند .

أيــن من كل هذا مصر؟ وعدت أراجع عنوان المحاضرة : كان كما قرأته من قبل ، كان عن تاريخ مصر الحديث! آه ياكيمى ، قصة لم تجمع ولم تسردِ ولم تُغَنْ إلا مشرزمة . استلبوك فصاروا منك ، هل صرت أنت منهم ؟

فى كيانهــا وداخــل دماغها حرب أهلية بين كل الأمصار وهى كل الأمصــار : إذا تكحــلت هكذا وصارت نفرتيتى ، وإذا زرعت الحلبة والعدس قبل عيد الفصح وإذا قرأت الشعر العربى ، وإذا حنت إلى بيت أبيهــا فى الأسكندرية وإذا تذكرت حكايا أمها عن جهاز حماتها التركية ، وتهكمــات أبيهــا من الأزهر وعائلاته ووسط كل هذا ومن ثناياه يجيئها

صـــوت أمها تحكى "شابورون روج" صباح يوم أحد مشمس فى حديقة الأسماك ، ومس كليفر تقرأ وورذ ورث ، ويصحبها أبواها إلى هايد بارك ومـــتحف مـــدام توسو ، فى عز شتاء الكريسماس وإلى البلاس فوندوم فى عـــز صيف باريس الحار الرطب ، وفى الليل تخاف أن تضطر للذهاب إلى الحمـــام فـــترى الملك الأطلسى وهو يصعد من البالوعة . فاذاسئلت قالت : مصر مهد الحضارات ، فإذا هزأ أحدهم كما هزأ نيكولوس بعد زيارة ليبيا ، أضافت ،

- هذا ما قال برستيد .



المـــرآة

لأيـــام طويلة ما كانت تحادث أحداً وما كان أحد ليكلمها . إلى إن كـــان يـــوم ســـبت دخلت فيه مكتبة جرين أمام مدخل الكلية ورأت البوســـتر . نسخة فوتوغرافية من لوحة سلفادور دالى "زهرة النرجس" واشترتها . كانت مارى، التى تقطن الغرفة بجانب المطبخ فى الدور الأول ، معهـــا وهى تعلقها على الحائط . وبدأت تبرر لمارى لماذا اشترت البوستر وفجـــأة اكتشفت أنها لاحظت الشكل الانسانى ، والبحيرة الزجاجية ، ولاحظـــت أوراق الشجر ولكنها وحتى تلك اللحظة لم تكن قد لحظت الزهرة : زهرة النرجس . هوى قلبها وكأنها اكتشفت شيئاً مزعجاً يمشى على الحائط . وكانت تلك هى اللحظة التى بدأت فيها السيور البللورية الدقيقة التى صنعت الجرس الزجاجى الكبير تنسل . حتى تلك اللحظة ، كـــان الجـــرس يحميها وتقدر على الضحك من حين لآخر ، حتى عندما تناديها شيفون : يا سيلفيا . وأحياناً : يا بلاث .

أفيقـــى ، أخرجى من تحت هذا الجرس الذى تصرين أن تقبعى تحته . ســـوف تكون نهايتك مثلها . سوف تدخلين برأسك إلى الفرن وتفتحين الغـــاز وتموتـــين ميتة مفجعة . ولأنه ليس لك زوج يرثيك ، لن يرثيك

أحـــد . ولأنـــك لست شاعرة لن يذكرك أحد وتضحك ، أحياناً حتى والطنين يعلو :

اكتـــبينى ، وحدك أنث تقدرين . أنت فقط تنقذيننى . تاب . تاب . تاب . كل الموسيقى فى النبرة والخديعة كذلك . . والذكرى . . .

* * *

شـــيفون لم تكن تعلم ولم يكن يعلم أحد ، أن لى زوجاً وأنه شاعر ، وأنـــه كان يفضل ييتس ، على تيد هيوز وعندما يبعث لى الخطابات كان يزيـــنها برســـوماته ويدعونى "سبأ" ويوقع : سليمان . وانى كنت أكتب لـــه الشـــعر ، لكـــنى لا أريه أشعارى . عندما جاء لزيارتى فى المرة قبل الأخـــيرة ، كان يستعد للعودة إلى بيروت . قال : لن تعرفيها ، صارت خـــرابا . كان يكبرنى بخمسة عشر عاماً وكنت أدعوه : دادى ، مع اننا لم نخلف أطفالاً . لم يكن فى وسعنا أن نتزوج كى ننجب أطفالا . السن . والديـــن ، ومكانته فى مجتمع متعصب . أشياء كانت هامة جداً بالنسبة له وقبلت وكان فى يدى ألا أقبل :

– قولى أنا وكررى!

– أنت .

– قولى أنا . . أنا .

– أعوذ بالله . . ما أنا بـــ . .

– لن تفلحى لو لم تقولى أنا ملء رئتيك .

– مثلك؟

– اتسعت عيناه عن دهشة حقيقية ونفى عن نفسه التهمة بحرارة :

– لا يستطيع أحد اقامي بالأنانية . أنا أبذل نفسي . أنا لا أتوانى . . أنا أفعل كل وسعى في سبيل الآخرين وأنت تعلمين .

– نعـــم أعـــلم . . أعلم . لا ، لا أعلم . لماذا تصر أن أريك أنت ما أكتب قبل أن أريه لأستاذي؟

– أنا أستاذك .

– وهو؟

– نحتاج إلى توقيعه على الشهادة عندما تنتهين من رسالتك .

– لماذا نحتاج دائماً إلى أشياء غير الحقيقة ؟

يصمت ، يستدير ويرحل ويعود .

كانت له زوجة تحبه كثيراً ، وابنة كنت أنا أحبها وتكرهنى ، وتزداد كراهيـــتها لى كل مرة نلتقى ، وأحبها لأنها لم تكن تخفى غيرتها على أبيها أو على أمها ، من يدرى . لابد أنى أربكتها كثيراً . رأيتها يوماً فى بيتهم فى لندن تمسك صحيفة الأحد ، وتنسال دموعها فى صمت . خفق قلبى مـــتوجعاً وعـــاودنى الوخـــز . أنا السبب . أنا تنكرت لآمنة ولم أعلمها القـــراءة والكتابة . هربت من بيت أبى ، لأستمتع بحياتى وحدى . لألهو

وأغرق فى اللهو . تنكرت ، وأنكرت إلى أن صاح الديك فى المرة الثالثة. كــانت لى مبررات قوية بالطبع ، ازدادت قوة كلما ازداد الخناق . هو يسافر ، يحاضر ، يغذى ذاته على اعجاب الآخرين والأخريات لا مانع . يشــرب الخمــر ويعود مع الصباح مترنحاً ، يجئ إلىّ يغلف هداياه شعور بذنــب مــا وأقبــلها . يجعــلنى أقطع على نفسى مئة عهد ألا أخرج إلا لــلجامعة والمسرح ولايثق : يتصل كل يوم فى الحادية عشرةِ مساء ، يسجننى فى خطابات طويلة بديعة ، أرهن عليها أنفاسى وأرقم بها الحياة . يصبح هو المتنفس الوحيد وفرصة التفاعل مع البشر ، يصبح هو البشر . وأنا امرأة تنتظر . الوهم يتكثف رجلاً مرتين فى السنة ؟

* * *

تــركت مــارى ، بل ربما طردتها وانصاعت ، وضعت معطفى على كتفى ولففت الكوفية البيضاء حول عنقى وخبطت الباب ورائى وذهبت إليــه في مكتبه . شعره الطويل يكاد يلمس كتفيه ، سواده الفاحم تغزوه شــعيرات فضية لامعة تلتف حول ياقة القميص السماوى تطل من فتحة البللوفر كحلى ، ونظارته المستديرة الصغيرة اطارها الذهبى فى سمك سلك خفيــف . فمه مثل أفواه الملائكة الصغار المدملجين على جداريات عصر النهضة الايطالية وعيناه البنيتان تلمعان مسرورتين . التقينا فى حفل للباليه الايرلندى الحديث فى مسرح الآبى . ولما قدمونا قال : أنا أعرفك جيداً ، أنت المرأة التى أراها فى أحلامى .

فضحكنا كثيراً وقلت له أنى لا أحب تماويم كارل يونج فقال أنه هو شخصياً فرويدى حتى النخاع ، فضحكنا أكثر ولم أكن ضحكت من زمن . ولما قال : متى نلتقى؟ نزلت بينى وبينه غلالة الخديعة ، والكذب لكنى تذكرت فتاة عربية صغيرة اسمها مريم . تفتح صحيفة الصنداى تايمز يوم أحد ممطر فى لندن . الصحيفة أكبر من ذراعيها ، تخبئ وجهها بين طياقها وتبكى فى صمت . فقلت : نلتقى يوم الأحد . ولما جاء الموعد لم أذهب .

عندما رآنى وكنا فى منتصف الأسبوع ، كتم السرور فى عينيه وغلف صوته بنبرة هازئة محببة :

- ومن أشكر على هذه الزيارة التى تأخرت ثلاثة أيام؟

قلت :

- سلفادور دالى .

- بلا مزاح؟

- بلا مزاح .

- هل تودى أن تحكى لى ، متى ، كيف ، إلى آخر تلك الأشياء؟

- كنت أعلق بوستر "لزهرة النرجس" وعنَّ لى أنك أنت من جعلنى أرى .

وذهبت إليه فى كرسيه أمام النافذة التى كانت تطل على الفناء ، وشممت رائحة الصابون تنبعث من ياقة القميص . من النافذة رأيت تمثال هنرى مور الذى كانت قد اشترته الجامعة حديثاً من منظور مختلف لأول

مــرة : قابعاً فى استسلام على النجيل الناعم وأطفال كثيرون ، يدخلون ويخــرجون مــن بين فجواته الملساء المستديرة . قبلته على وجنته وفجأة أدركــت المسافة التى تفصل الكلمات عن التواصل . انك فى حاجة إلى الكــثير جداً من الكلمات وأكثر منها لحظات صمت ترقمها ، والآلاف مــن الحــركات الصغيرة ، متناهية الصغر تكاد لا تلحظها حتى العيون المدربــة ، وأكــثر مــنها نبرات تدل على سوء الفهم قبل أن تستطيع أن تمســك بآخــر فى لحظة عين وتعلم أنك تعنى ما تقول وتقول ماتعنى بــلا زيادة ولا نقصان . قبل كل هذا أنت فى حاجة إلى أكاذيب كثيرة ، كثيرة .

* * *

فى حجرتها على السرير الصغير كانت تتملى الجسد الأبيض الفارع . من قبل لم تكن تحب البياض . كان يوحى لها بالترهل . ولم يطرأ لها قط ، أن تعــرف رجــلاً لم تمسسه موسى الختان المُطَهِّرة . لكنه تركها مرادفاً لــلجمال الحــانى ، والاكتمال الوثير . متعته تمتد وتتباطأ تتعبد فى جسد صاحبها ، فتنفرج   له مستسلمة لاختراقه لأنه يتسربل فى حنو المتهدج ، فيعلمها الصلاة .

عندما دق جرس الباب . سألها :

- ألن تفتحى الباب؟

ردت : لا .

- هل تعلمى من بالباب؟

- نعم

- هــل تركــتنى أدق الباب ، وكنت فى الداخل وأنت تعلمين أن الطارق هو أنا ؟

نعم قالت ، وكانت تكذب . لقد أحبته تماماً . .

جذبــت الــباب خلفها فى هدوء وذهبت إلى الحانة . كانت السماء تمطــر طيــناً ، دخلت حانة "أونيل" وشربت طيناً وعادت إلى حجرتها ملابســها ملتصقة بجسدها ومرضت ، وكانت تهذى تحت وطء الحمى . جاء الطبيب وقال :

- لاشئ يستدعى القلق . سوف ينتهى الأمر برمته وكأنه حلم .

لمــا تعافت ذهبت إلى المكتبة ولم تقرأ شيئا كان فى استطاعتها فهمه . وعندما جاء على دراجته ينفض عن نفسه المطر ، قال :

- ربما كان من الأفضل أن تعودى إلى بيتك . بك كل الأعراض .

كان يمزح بعض الشئ . يعلم أنها لابد عائدة ويعلم أنها لاتعنى ماتقول عندما تقول ان الحل الوحيد كى تبقى هو أن يتزوجا . لكنها لم تضحك عــلى مــا كان يسميه "الأعراض" وكانت طريقته فى دعوتها إلى بيته ،

"بيـــتك" كـــان يقول . لكنها باغتته بغضب يضغط الكلمات ، وينفثها فحيحا يكاد لا يسمع :

– أين بيتى؟ ما هو هذا الذى تدعوه بيتى؟ لماذا تقول بيتى؟

كـــان لى بيـــت . كـــان لى بيـــت أعـــود إليه ووطن . لم تمد يدها إلى الصحيفة ولكن إلى أعمال شكســـبير الكاملة وقـــرأت له من هنرى الخامس، وهى تبتسم ابتسامة صفراء ، مغلولة : "مَن أمتى؟ ما هى أمتى؟ هـــى خسيسة وحقيرة وهجين زائف ، وضيعة نذلة! ما أمتى من ذا الذى يتحدث عن أمتى؟"

أخذها بين ذراعيه يهدئ من روعها ويقول :

– أنا لا أعنى وطنك يا أميرتى ، أنا أعنِى بيتك حيث أنا .

ولما نظرت له كأنه غريب تلقاه أول مرة تورط فى الكلمات :

قال : حيث أهلك .

فردت : وما الفرق؟ وبقى إلى أن نامت .

كانت مصر تسرع نبضاها فى الأخبار ، تمسك أنفاسنا . الأصوليون الاسلاميون ، وأسماء كثيرة وطلبة وأساتذة وضباط وعساكر . شنقوهم . وتقرير البى بى سى يقول : القاهرة هادئة أم تراها لا مبالية؟ القاهرة سمكة بالمايونيز على غداء مصرى أصيل لوفد من الأجانب .

يوم الأحد جاءها على الدراجة وضحك قائلا :

– هيا سوف أصحبك إلى أمتك ، أقصد إلى بيتك .

وضحكت كانت تلبس السواد وتستعد للذهاب إلى السفارة المصرية في دانـــليرى لتقديم واجب العزاء في مصرع الرئيس المؤمن : محمد أنور السادات عندما وصلها نبأ وفاة أبيها ، أم أن عينها التقت وعيني البحار ذاهباً إلى البحر في القارب الخشبي الصغير .



الطريق إلى سانت باتريك

فى الغرفة الصغيرة فى الطابق الأول من المنزل رقم ١٧ طفئ المصباح. الأوراق الـتى كـانت مبعثرة لململت وامتلأت بها أكياس ورقية كثيرة . الأوراق ممـزقة بعناية فائقة . ها هى أمثولة الحلم . ماذا كان فى الحلم؟ ولماذا بدأ بصلاة الرب ، وكيف انتهى مقطعاً إربا فى أكياس تحملها الآن بيرنى (سيدة النظافة) إلى الزبالة؟ مقاطع صغيرة بقيت فى الدماغ . مقاطع من رسالة طويلة كتبت خلال مايقرب السنة . تتردد فيها جملة هى معناها الأصلى وأطروحتها الأساسية : "كيف يتسنى لك أن تفهم؟" .

" كيف يتسنى لك أن تفهم ، والصوفى الوحيد الذى تعرفه باكستانى لا يقدر على الصراخ فى وجه خروف : بآآآه . مثلما يصرخ أطفال الإله الأقـل شأنا ، البكم والصم ، فى المسرحية . أرأيت كيف أحبَّ الاستاذ تـلميذته الخرساء؟ أرأيت كيف علمها سماع الموسيقى؟ وسمعت الصوت المروع الفظيع الذى أطلقته فى احباطها وغضبها من قدرها الأطرش؟ هى أنت وهى أنا . بل هى أفضل . فى حال أفضل منى ومنك . هو تعلم لغة الصمت البكماء ، ولكن فى النهاية كان هذا هو كل ما عليه تعلمه ، كى يعيش معها فى عالمها . هذا فى المسرحية بالطبع . وبعد أن ينتهى العرض

لـــو كان الممثل الناطق يحب الممثلة الخرساء ما عساها كانت تكون عليه حياتهم؟ أى قدر من التضحيات كان يتوجب عليه كل يوم حتى لا يؤذى مشـــاعرها؟ أى قدر من حياته الناطقة كان عليه طمسه أو نسيانه؟ وأى قدر من الشك كان سيتلاعب برأسها عندما يخرجا إلى الناس ويسمع هو مـــا يقولون وتنتظر هى أن يترجم لها ما فاتها من حركة الشفاة؟ لم تكن لتتواصـــل إلا مع من هم أرهف وأكثر حساسية من الصمت . أنا وأنت أيضاً هكذا . أحيا معك بما أظن أنه كلُّك ونصفى أنا . وتحيا معى بكلِّى ومـــا أظن أنه نصفك أنت . نصنع لأنفسنا عالما فى المنتصف من تداخل عـــالمين لكنا نظل نَحِنّ إلى البراح الأكبر ، حيث الناس لا يبذلون الجهد لفهم أو إساءة فهم بعضهم بعضا . حيث يستطيعون الثقة فى حدوساتهم ويـــردون الأفعـــال وفقاً لخرائطهم الخاصة فى الوجدان . حيث لا مجال للـــتلاعب إلا بالألفاظ ، لا يستطيعون ادعاء الجهل الطيب إلا فى أضيق الحدود . خرائطهم خاصة جداً . هى خرائطهم بوصفهم أفراد ، أناس ؛ لا أمـــاكن جغرافيات بأسرها وتواريخ شعوب وتراكمات كراهيات فى الصحف الرسمية .

ولكن كيف يتسنى لك أن تفهم . أن تفهم بالفعل . أن تفهم بكلك . فالجغرافيا والتاريخ والمدينة فى صفك ، وفى نهاية المطاف ومهما كان فإن هـــنا عـــالمك كأمـــر مفروغ منه لكنه ليس عالمي سوى بالتبنى ، بمدى

مـــا يستطيع أن يتبنانى ، فهو ليس غريباً عليَّ ، أنا الغريبة عليه وأى قدر مـــن الـــتعالى أو تجاهل تلك الاشارات المجاملة أحياناً ، المجحفة أحياناً ، تتســـربل فى فضول شرير أو طيب ، لايغير من الأمر شيئاً . أحمل عرقى وديـــنى وكـــل جوازات السفر المصرية والعربية المسلمة ، مُؤَشَّرَةً بكل مـــا أتخيل أن الآخرين تعلموا أن يتخيلوه عن بلادى ، فى النكات والمزح والكاريكاتور فى الصحف وأنزل لأشترى الخبز أو اللبن من البقال . كأنى ألـــبس فستاناً للسهرة وحذاء مرصعاً ، وأثمن جواهرى للذهاب إلى نزهة عـــلى دراجة فى الريف . أنا أعرف أن العيب فيَّ أنا وعليَّ أنا يقع عبء التنصـــل مـــن هويـــتى ، أو التصرف وكأنى أنا أنا فقط ، لا أهل لى ، ولا وطن ، لا ذاكرة لى ، ولا حنين إلى مكان كان عالمى كأمر مفروغ منه وبوصفي أنا فقط لن تضيرنى النكات ولايلمسنى الهزؤ ولا أتأثر بما يقول محـــدودو الأفـــق ، فلماذا أتأثر؟ لم يضربنى أحد على يدى للمجئ هنا ، فـــلماذا أحمّل أحداً تبعة مشاعرى؟ ولكن . تذكر الأفارقة؟ قلبى يذهب لهم، وأنا أراهم فى الفناء وألحظ ما قلتَ يوماً ، وقد علّق سكير عتيد من رواد حانـــة أونيـــل عـــلى ضـــعف الأفارقة أمام الويسكى : "أنظرى ، يتجاهـــلونهم وكأن بهم بَرَصَاً . لايلقى عليهم تحية الصباح سواى" . لماذا شـــعرت يومها أن حبك لى يمربعد منبعه بمكان يوقفك فيه أحدهم ليشد على يدك مهنئاً اياك على سعة أفقك ، وسماحتك .

أنـــا أيضاً أفريقية . لماذا؟ أظل أنا شيئاً هوميا يحال إلى قارة بأسرها ، أو وطـــن أكـــبر ، أو حضارة أقدم؟ وتظل أنت روجر سكيلتون فقط . ولـــو سئلت عرّفتك : استاذ منطق وعلم نفس ، يدرس فرويد و"لاكان" فى ترينتى كولدج . ولو أصروا : من الشمال . ولو علقوا وقد عرفوا من اسمك : بروتستانتى؟ قلت : وماذا يهم .

أمـــثل هذا هو ما كان يستدعى حديث الفروقات : نحن فى مصر . الناس فى بلادى . وأترجم لك الأشعار ويظل السؤال معلقاً بعد الحديث: مـــن "نحن" هؤلاء؟ أى "ناس" بالتحديد فى تلك البلاد . وأنا هم ولست هم . أنا نحن وأنا ، أنا فقط .

أشياء شبيهة ، وأوراق كثيرة ، كثيرة مزقت على مدى ثلاثة أيام .

أوراق لم تكـــن تصلح . كذب . فقط لم أكن أعلم أنها تصلح . كل مـــا فى الأمـــر أنها كتبت بالانجليزية . وكنت أخاف ألا تصلح الانجليزية للصـــدق ، أو للكذب . فهى لغتى وليست لغتى . ألهذا أحببت بيكيت وجويـــس؟ وأحبـــبت جويس أكثر مما أحببت بيكيت؟ ومن بعدهما لماذا أحببت أليوت كل هذا الحب :

أبانا الذى فى المنفى

علمنا أن نهتم والا نهتم

علمنا أن نسكن فى هدوء ..

نعـــم قتلت الناس جميعاً . من يتلف هدايا الحكماء كمن قتل الناس جميعاً ، وعليه أن يرضخ للعقاب . أخرست آمنة ذات التسعة أعوام بعد أن أعطيـــتها صوتاً ، خنقتها وقتلت مريم الصغيرة بعد أن رأيت دموعها تـــنهمر فوق الصنداى تايمز . وقبل هذه وتلك قطّعت كيمى أربعة عشر قطعـــة ، وألقيـــت بأشلائها إلى سلة المهملات . كان جديراً بى أن أرهق ولكـــن كـــان أجدر بدلاً من طلب العون الجبان ، أن أنهى حياتى . ربما أنهيت حياتى بطلب العون .



سانت باتريك

بعــد بــرهة انفــرج الظلام ووجدتنى فى عنبر طويل نائمة فى سرير حديدى وفوقي بطانية صوف خفيفة وجو الغرفة بارد فانتابتنى قشعريرة . ثم انفتح باب فى أقصى العنبر ودخل منه نور دافئ وظل امرأة فى ملابس التمريض . أغلقت الباب وراءها ثم أضاءت مصباحاً صغيراً على مكتب فى نهايــة العنبر بجانب الباب وجلست وراء المكتب تكتب . ما إن أضاء المصباح حتى انتبهت أن هناك امرأة نحيفة جداً ترتدى قميصاً من الدمور أو الــتيل البيج ، له أكمام طويلة ، عقد فى شرائط من الخلف . شعرها ذهبى أشهب يكاد يكون أبيض خالصاً لولا الهالة التى صنعها حوله النور. كانت رائحة غادية تزرع الممر بين صفوف الأسرة وتلمس كل سرير تمر بــه . عندما مرت من أمامى سمعتها تكرر كلمة لم التقطها وشممت رائحة غريــبة . رائحــة الشيخوخة ظننت بداية؛ عطانة ماحول الفم والآذان وتنبعث من فروة الرأس ، رائحة تصيب الشيوخ الذين لايحتفظون بتوهج أذهانهم .

فــيما بعد أدركت أن تلك الرائحة ماهى إلا رائحة الجنون . سوف أشمها تنبعث من روبن وايت ذات الثلاثين عاماً . رائحة اضمحلال العقل

وتعفن الذاكرة فكنت أصر أن أتحمم ثلاث مرات يومياً ، وكان ذلك يصيب الممرضات بالهلع .

تركت سريرى فوجدتنى أرتدى جلباباً مثل الذى ترتديه العجوز . وتأكدت من صدق النبوءة . توجهت إلى الممرضة فى آخر الغرفة وراء المكتب فرفعت عينيها إليّ فى بطء مترقب وبها غضب يتجمع حول الفم ، قلت لها إننى أشعر بالبرد ولم تجاوبنى . استدارت حول المكتب وأخذتنى من يدى حتى سريرى وأدخلتنى السرير وأحكمت حولى البطانية الصوف الخفيفة وظللت أرتجف حتى غلبنى النعاس .

فى الصباح وجدتنى فى غرفة بها سريران فقط كان سريرى بجانب النافذة وعن يسارى رقدت امرأة لها وجه طفولى جميل ، بيضاء البشرة وشعرها أسود فاحم ولها عينان خضراوان شديتا الخضار . جفونها منتفخة محمرة كأنها قضت الليل تبكى . ابتسمت لى ابتسامة وردية صغيرة نمت عن أسنان بيضاء لامعة وقالت :

– أنا روبن وايت .

كنا فى ديسمبر ، وظننتها تهزأ ، أو تخرف .

تلك السنة نزلت الثلوج على دبلن ، فرددت بعدوانية :

– وأنا روبن ردبرست .

شهقت ، وكأنها صدقت ولما لم ابتسم أعطتنى ظهرها ولم تنبس بقية اليوم . فيما بعد تحدثنا كثيراً .

دخلت الممرضة بصينية كبيرة عليها براد شاى وتوست وزبدة ومربى البرتقال وطبق من الكورن فليكس بجانبه لَبانة كبيرة من الفخار بها لبن بارد وسكرية بها سكر ناعم . وضعت الصينية بجانب سرير روبن على منضدة الدواء المرتفعة وجذبت جزءاً من السرير فخرجت صينية عريضة محمولة على ذراع معدنى ولمست كتف الفتاة بيد حانية وقالت :

- افطارك ، هيا ، كونى بنتاً طيعة .

كنت أتابعها فابتسمت وقالت :

- بعد العلاج .

لم أكن أشتهى الطعام ، ولم أرد ، ولم أسألها :

- أى علاج ؟



أمثولة النرجس

من بين الأوراق التى مزقت كانت حكاية حب يائس . ولأنها بدأت يائسة كانت بالفعل حباً ولم تختلط بأى من الأمور التى تحول الحب نحو الواقع العملى . كان حباً بلا حساب . فى الأيام الممطرة كانا يوقدان المدفأة فى بيته فى دانليرى ، على البحر ، يشربان النبيذ ويستمعان إلى الموسيقى وينظران إلى البحر من وراء الزجاج يزبد ويرغى وإذا اشتعلت رغبتهما مارسا حباً طويلاً بطيئاً وكأنهما يلتقيان فى أعماق رحم كونى لم يسم أحد مفرداته بعد . كانت أياماً يرقمها الصمت . فهم عميق بلا مطالب أو توقعات . إلى أن كان يوم ، نظرت كيمى من وراء الزجاج وبان الهلع فى عينيها . فى لمحة كان بجانبها يسأل :

- مالك ؟

كانت تنظر إلى الأمواج ، عروفها أحصنة تجرى ، تدك الرمل ولا تصل إلى حيث الزجاج .

- عيناى تخدعاننى .

رد : يحدث . لا تخافى .

كـانت الفكـرة قـد بدأت تتجمع حول كلمات قيلت فى اليومين الماضـيين . فى الـبداية تنجذب الكلمات بعضها إلى بعض بسبب الشبه لا أكـثر : الأمواج ، مود ، جون . ثم تتضاعف وتتداخل مثل أهليجات الذرّة : موج موف موت ، إلى أن تتبلور تماماً : موضة ، ذهبت لأنها كان يجب أن تموت . درس الحساب ومود تقول على العشاء البارحة :

you think I'm just a pretty face!

مود قبيحة . ليس هذا هو القصد . فما من انسان قبيح إلا إذا كان داخلـه قبـيحاً . المعنى الآخر هو أنها جميلة جداً ولكنها ليست جذابة ، هكذا يقولون . جمالها الداخلى لا ينضح على وجهها . لا يخطر لى أنها تهزأ مـن نفسـها هكذا . لا يمكن . هى تهزأ منى . تعتقد أنى أتصور نفسى جميلة .

أمـام البحر أتذكر نبتيون الذى كان يملأ خيالات طفولتى ، وألوح لـه وفهمت لأنى تطوعت وحكيت لها عن مس ديانا وكذبت وقلت انها لم تكـن سوى وجه جميل كان علىّ أن أدفع الحساب فى التو واللحظة . ما عقاب الكذب ؟

عندما جاء من بيروت يحمل الورود والهدايا ولم أفتح له وكنت أعلم أنه هو بمـاذا بررت له غيابى؟ وماذا قلت له فى اليوم التالى على الغداء؟ كم من الأطفال أبكيت ؟

فى لغـــتين ، تكون فرص تشابه الكلمات مضاعفة . روجر لا يعرف العربية . بعد يومين من الحب ، والنبيذ ، كان قدره امرأة تموت برداً فى سريره . لا تحادثه ولا تريد أن تقول ما بها . كيف لا يدرى ما بها ، هي التي لم تكن فى حاجة إلى الحديث معه سوى فى وجود غرباء .

يحضـــر لهـــا أكلها فى السرير ، ويسأل كما يسأل الناس ، فى العادة أحباءهم :

- هل أغضبتك مود؟

وتستجمع كل شجاعتها من قلب الشفقة على نفسها من الموت ، مع النفس التالى ، وقلبها يدق بعنف :

- لا ، لا مود جميلة جمالاً لا يوصف .

فيضحك . وتتأكد هى أنه يظن أنها تتحدث عن نفسها .

ويترف دماغها من أثر الشظية البللورية . فتربت على كتفه وتبتسم ابتسامة مواسية . لا مود .

الموضـــة . عندما كان أبي يسافر ، كانت مصر مغلقة تماماً . وكانت صـــديقاتي يفصـــلن فساتينهن عند خياطات يأتين إلى البيوت . أنا كنت ألـــبس الموضة ، فى الوقت الذى تظهر فيه فى لندن وباريس . وأقف أمام المـــرآة بالســـاعات أتحضّر للذهاب إلى النادى يوم الجمعة . أنا لم أحب أحـــداً . والآن أنا متأكدة أن أحداً ما كان يمكن أن يحبنى . كيف يحب أحد الموضة . أنا موضه قديمه . رأسى موضة قديمة .

أحب أن ينتبه إلىّ الرجال . أهتم بملابسى وأعتنى بمظهرى وأريدك أن تحبنى رغم ارادتى . أن تصر على الزواج منى رغم رفضى .

I'm just a pretty face

ولـــذا عندما تدق جرسى فى المرة القادمة لن أفتح لك الباب ، حتى لاترى ماذا فعلوا بوجهى عندما أخذونى "للعلاج" .

* * *

كـــان الأطـــباء قـــد نصـــحوا من زمن بضرورة استخدام العلاج بالصدمات الكهربية . وجاء أخى خصيصاً ووقع على الأوراق بالموافقة . أســـلمت ذراعى للمرضة فأدخلت إبرة البنج إلى العرق النافر فى الزراع الـــيمنى . وقـــبل أن تسوخ روحى بفعل البنج ، سمعت آمنة تقول على مقربة من أذنى :

– ماتبصيش لروحك فى المراية كتير . إلى يبص لروحه فى المراية كتير يتجنن .

وشـــعرت بهم يفتحون فمى ويدخلون به لساناً جلدياً . يقال أنهم فى هذه الأحوال يوثقون الأطراف ويضعون على الجبهة تاجاً معدنياً يصلونه بالكهـــرباء ويضـــغطون عـــلى المفتاح كَماً محسوب من الفولتات حتى لا يميتونك قبل أن تموت .

فــتحت عيــنى فاذا إطار من المعدن المدهون بالأبيض ، تملأ فراغاته ستائر بيضاء شدت من أعلى إلى أسفل في طيات مستطيلة منشّأة . نظرت عن يمينى فوجدت النافذة . لم أبرح الغرفة اذن؟ أم أننى بارحتها ثم عادوا بى إليها؟ ولماذا هذا البارافان ، ماذا كانوا يفعلون بى؟ هممت أن أنزل من ســريرى وداخلى يغلى غضباً وخجلاً : ماذا كانوا يفعلون بى؟ ماذا كان يستدعى الحجب وراء بارافان؟

ما إن نزلت حتى ترنحت واصطدمت بالبارفان وشعرت برأسى يكاد يــنفجر من الصداع . عدت أدراجى أتحسس موضع قدمى وقد أصابنى عطــش شديد . دخلت ممرضة بسرعة وكأنها تعلم أنى نزلت من سريرى وقبل أن أحاول الصعود إليه مرة أخرى كانت يدها تساعدنى برفق وحزم ووجههــا حيــادى تماماً . أحكمت حولى الغطاء وتركت الغرفة بنفس الكفاءة والدقة فى الحركة التى دخلت بها .

تكررت صدمات الكهرباء . وفى يوم سمعتهم يقولون "ليثيوم" فنظرت إلى روبــن ، وكــانت تهز رأسها يميناً ويساراً : لا . ثم قالت فى صوت واهن :

– يــنفخ الجفــون ، ويزيد الوزن . يجعلك تبدين كسكير عجوز .

وراحت تتلمس أنفها .

لــو كــانوا أعطــونى ليثيوم ما كنت أدركت . كانت الممرضة تجئ في مواقيـــت بعيـــنها وفى منتصف الليل كذلك . تحمل كوباً بلاستيكياً صغيراً شفافاً وكوب ماء . تمد يدها بعدد لايحصى من الحبات فى مختلف الألـــوان ولاتذهـــب حـــتى تـــتأكد أنى ابتلعت آخرها : الحبة الوردية الصغيرة .



بيت أبى

طـــريق العودة شاق وطويل . وتفاصيل الوداع كثيرة . ألملم أشيائى وأعـــود أنظر إلى الحائط ، ثم أعود ألملم أشيائى . فى النهاية أقرر ألا أبقى شيئاً . أصعد على السرير وأنزل بوستر زهرة النرجس برفق . ألفها حتى تصير ماسورة طويلة ، وعندما تدخل على بيرنى تسألنى إن كنت فى حاجة إلى مساعدة ما ، أكون قد انتهيت من لصق حواف البوستر بالسلوتيب . أرفع البوستر فى شكله الجديد وأنظر لها عبر الماسورة .

– هذا ما يسمى الرؤية من خلال النفق .

ونضحك على لا شئ .

تـــنزل معـــى السلم بالحقائب وتودعنى التاكسى المنتظر . فى الطريق إلى المطـــار أشعر بهشاشة كيانى . جسدى رقَّ حتى كاد يشف عن الروح داخله . لو كانت الأرواح هى التى تسكن الجسد وليس العكس لكان فى اســـتطاعة الناس الذين يروحون ويجيئون الآن محدقين أن يشاهدوا صور شهرين ماضيين على شاشة الروح التى أصبحها جسدى .

فى المطـــار أود لــو اســتطعت التحمم . رائحة الجنون تطاردنى ، ولا مهرب . وفى العيون نظرات تؤكد أنهم يعلمون أنى خرجت لتوى من مكان يفصل ما بين الأصحاء الأقوياء ، ومن يتحملهم الأصحاء الأقوياء على مضض . فى الطائرة لا آكل ، لا أنام ولا أدخن . وعندما نصل إلى القاهـــرة وأحمل حقائبى إلى الخارج ، أشعر بالحر الشديد مع أننا كنا فى يــناير . الشمس ساطعة جداً ، ولا ظلال ، السماء زرقتها متساوية بلا سحب . وعندما يصل التاكسى الذى أقلنى إلى باب بيتنا ، يتسارع قلبى ويدق فى رأسى مع النبض فأعزى نفسى بوهم لا تضاهيه الذاكرة بصدى كـــلمة أو صورة تنعكس عبر الزمن وتظل مرايا الذكرى محايدة ، ذئبقية الـــلون . مرايا تنتظر . لكنى أعاند وآمل . هناك عندما أصل إلى البيت ســـيفهمون . أقفـــز سلم العمارة درجتين درجتين وأفتح باب الاسانسير ويـــدى ترتجف . أضغط على الزر وعندما أصل إلى الدور الثالث ، تكاد روحـــى تنســـرب من ساقى . أصل إلى باب شقتنا وأدق الجرس . أكاد أركـــل الـــباب بقدمـــى حـــتى يسرعوا وعندما تفتح لى آمنة لا تفاجأ ولا تتعجب وتبدو متعبة :

– حمد للّه على سلامتك يا حبيبتى .

واحتضـــنها لكـــنها تتملص ، تنفى انتماء ما . أم تراها شمت رائحة الجـــنون ؟ مـــاذا قالوا لها . لابد أنهم قالوا أشياء . فهى لم تسمع صوتى فى التليفون ما يقرب من ثلاثة أشهر . وأعذرها . أحمل حقائبى إلى الغرفة القديمة وأسمعها تقول فى وهن :

– أمك بتعزى ، تتعشى دلوقت ولا تستنيها ؟

املاهـــا فى صمت . وزنها زاد قليلاً . هى تأكل اذن . حول عينيها خطوط كثيرة لكن أسنانها مازالت قوية بيضاء ، وتقطيبتها صارت جزءاً من وجهها . خطان طويلان يفصلان بين الحواجب الخفيفة . تلتقى عيوننا فأشـــيح عـــنها . أخجـــل من كل هذا الجمال المروع القاسى القوى ، فأصمت . لكنها تعود ، وقد جمعتنا غرفة الجلوس وحقائب السفر :

– تتعشى ؟

فأرد محاولة استدراكها إلى حيز كان ملكنا وحدنا وأذكرها :

– كنت هناك وجيت ، حتى العشا ما اتعشيت . .

– انت لسه فاكرة ؟

– أمال يعنى انت بس اللى بتفتكرى كل حاجة ؟

مطت شفتيها وغلف صوتها نبرة تهكم متحدية :

– طب احكى وريني !

– بعدين أقولك .

– ولا بعديـــن ولا قبـــلين ، أدخـــلى اغسلى وشك كده ، وغيرى هدومك على ما أجيبلك حاجة تاكليها . أمك باين عليها حتتأخر .

بعـــد غيـــبة عشر سنوات دخلت حجرتى ووضعت حقائبى جانب النافذة وجلست أتنفس المكان . أحصى الأنفاس التى شغلت حجرتى وأنا

بعيـــدة . كل الحياة التى غُزلت وأنا بعيدة . كل المرات التى رُتبت فيها الأســـرّة . جهزت الوجبات كل الكلام الذى لم أسمعه . كل الخيانات الصـــغيرة . كـــس الملابس وكل المرات التى غُسلت فيها الملابس . كل الـــبرتقال الذى عُصر . وكل الاهمامات التى تبودلت ، وكل الكتب التى قـــرأت وكل التذكارات؛ الأنفاس التى زحفت على أماكنى طلعة شمس وراء طلعة شمس ، وكل مرة غاب نهار ، كبرت وتنامت وأزاحت أشيائى واحتـــلت أماكـــنها . وبدا لى ذلك أنه كما يجب أن يكون . حجرات الغائبين حلٌ للمقيمين .

فتحت دولابى ورأيته مدروزاً بالثياب . لم تكن ثيابى جلت بنظرى أبحث عن أشياء تركتها هنا إلى أن أعود . ولم أجدها وأشياء وجدتها لكن طرأ عليها تحول الأشياء التى تبدل ملكيتها

"المج" البلو دلف . فرغ الآن من الأقلام وريش الكتابة لم يعد هناك حبر أسود "سكوَيـ" بجانبه ولا أوراق . بجانبه الآن أباجورة من فصيلته . كـــان أحدهم أهداها لى فى مناسبة ما . أمى تقول أنها لأختى وأصدقها . لأن الصـــوت فى دمـــاغى يعقـــب على منظر الحجرة الجديد مع النبض فى الوريد. تخليت ، تخليت ، تخليت . هكذا عاقبة من يتخلون

الكـــتب عـــلى الأرفـــف اختـــلفت كذلك . والعرائس . والصور والبوســـترات . أُنزلت من فوق الحوائط . غرفتى أصبحت مرتبة ، وبها أشـــياء لى وليســـت لى . كأن "الهوفر" التى استخدمت فى تنظيف الغرفة

كـــانت تسحب الروح من أشيائى وهى تسحب التراب ، ماتت الأشياء وبقى بعضها جثثاً محنطة . لو كنت عدت فوجدت أشيائى أكلتها العتة ، وملأت أركان الغرفة رائحة تراب السنين ، كنت استعدها من الاهمال؛ وكانت تعود وتفسح لى مكانى الذى تركته .

كانت الأشياء حينئذ سوف تستجيب ، فأنا لم أستبدلها . فقط خنتها. جعـــلت مـــنها مهرباً سهلاً وملاذاً متوهماً ، عندما كانت تستعصى على الحيــــاة كنت ألجأ إليها ، أصفُّها ، أتدثر بذكراها قابعة هناك على رف فى حجـــرة بعيـــدة . لايتبدل مكانها تخدم غرض الاطمئنان النهائى . غرض المـــوت . لو كنت حكيتها ، ربما ما مرضت روحى . لكن الأشياء التى نصـــفها ولا نـــرويها تكـــرر نفسها ، كل مرة ، هى هناك فى المتحف ، فى غرفة الصالون لاتبرح ، لاتغادر ، لاتتبدل ، جثة محنطة لم تحكَ .

لم يخطـــر بـــبالى انى لـــو عدت إلى بيت أبي يصبح علىّ التظاهر بأنى لم أبـــرحه ، لأصنع حكاية . أن أنصاع لهوفر معنوية ، تشفط روحى مع تـــراب الأسى والألم . تمتص حكايتى وتحتفظ بشكلى وهيئتى . لم يُطلب منى . لم ينبس أحد . لكن شيئاً ما فى الهواء نفسه كان يقول ، هنا لا نقبل سوى حكاية واحدة ، هذا إذا كان الحكى لابد منه :

كان ياما كان فى حاضر الأيام فتاة ذكية ، سريعة ونظيفة ، بريئة إلى حد السذاجة أحياناً . قرأت كتباً كثيرة ، لكنا أعفيناها من التجربة ، فلم نســـمح لهـــا أن تتألم . ووفرنا لها كل سبل العيش فى رغد . ولما أرادت

أن تكمـــل تعليمها ، بعثنا بها إلى جامعة محترمة فى بلد كاثوليكى محافظ . كـــنا نداوم الاشراف على حسن سلوكها ، من خلال استاذ عربى جليل اخـــتار لها تخصصها فى جامعة كان يداوم هو على الحضور إليها . يطّلع بنفســـه عـــلى كل ما تكتب ، يوجهها وينصحها ويحميها . فتاة دؤوب طيعة، محترمة . لم تتسبب يوماً فى ازعاج أحد . تذهب إلى المكتبة وتعود لـــتقرأ . وفى المـــدة المقررة انهت دراستها وعادت ، ونحن الآن نفخر بها وننتظر منها الكثير" .

وهكـــذا صـــرت آكـــل بانتظام ، وأنام بانتظام . هذا فقط هو كل المطـــلوب ، هذا فقط وليس حرية التذكر ، أو تلقائية التعبير والكلام . هـــذا فقط وليس الحكاية الشافية . لا أحد يسأل . لا أحد يبدى أبسط الدلائل على الفضول . ماذا حدث ، كيف حدث ، كيف لم تستشعرى الخطـــر . لماذا لم تنم خطاباتك عن خلل . كيف أخفيت الألم عن صوتك فى التليفون . لم يسأل أحد . فلم أجب . وبات علي التظاهر . كما هنا كما هناك .

أنظـــر إلى الحائط يرتفع بجانب سريرى ، وأرى الآخر الذى يضاهيه فى دبلن ، خاويًا هو كذلك . الحوائط بلا خرائط هنا وهناك . وأنا لم أعد لا هـــنا ولا هـــناك . مكانى مطهر لا يرجى منه خروج ولا فى الخيال . ليمـــبو ، كـــلمة أوفى لوصـــف تلك المساحة التى تتخلق عندما يتداخل عالمـــان . أهليج يهدد بضغط شكل انسانى يقف داخله مفتوح الأرجل

والذراعي ن، مشدوداً عن آخره يقاوم بكل ما أوتى الا تتطابق الدائرتان فتمحقانه محقا . كيف يتسنى لكم أن تفهموا ؟ وقد فرضتم على صمت التظاهر بأن كل شئ على مايرام ؟

خـــريطة المنفى على الحائط لم تكن حنيناً إلى الوطن : ولم يكن هناك منفى ، كان هناك فقط وطن آخر: تؤهله صوره هو ، ونفاقه هو ومراءاته هو ، وصمت تظاهره هو ، بأنه وحده قائم وما كان أبعد من لندن شرقاً أو بوســـطن غرباً لا يدخل فى عداد الجغرافيا ، كم مجهول ، منَ الأفضل أن يظل مجهولاً . وكان الشرط الوحيد هو الصمت والتظاهر بأن هنا هو كل شئ .

* * *

فرص الاختيار صارت مطلقة: اختارى: كل الأمور متاحة ، اختارى من تكونين . وكان هذا هو الحكم الأصعب . لم أتدرب . لم يعلمنى أحد. لم يطـــلب منى مثل هذا من قبل فى أى امتحان . لم أمتحن من الأصل . رخصـــة القيـــادة جاءوا بها الىّ حتى البيت . بطاقتى الشخصية كذلك . وجواز السفر . كان كل المطلوب تحت كل الظروف هو الحرص الدائم عـــلى حساب النفس . دون أن تكون هناك مادة كافية للحساب . ماذا يفعل العقل تحت هذه الظروف ؟ يأكل نفسه ، يتغذى على خلاياه الحية . يستعيد فرص الحساب المتاحة . يعد الأنفاس ويسمح للوحش أن يتنامى داخلـــه ، ويتصور أن الوحش الذى يتغذى عليه هو صديقه وحارسه ؛

يتصور أن الوحش الذى يتغذى عليه هو ضميره وبوصلة فؤاده ، ويضيق الأفق :

قـــلت ، نظرت ، ضحكت بصوت أعلى مما يجب ، تبسطت مع من لا يصح التبسط معه ، جلست دون أن تضمى فخذيك ، أكلت بنهم ، أدليت برأيك فيما لا يخصك ، تدخلت فى الحديث ، تعاليت ، انزويت .

أثـــناء المحاكمـــة تتحول عينا الوحش إلى مرايا صافية يرى المرء فيها نفسه كما يراه الآخرون يصبح الآخرون ضميره ، ويسجل العقل تصوره عن تصوراتهم: كاذبة ، مزيفة ، مدعية ، تعيش فى أوهام من صنع خيالها . متعالية ، مغرورة ، يسجل العقل ، فينقض الوحش على القلب ، يأكله .

* * *

فى المحاكمة أسأل: أى لون تفضلين ؟ الأحمر؟ أم الأسود؟ لا أجيب . وإذا أجـــبت قلت "لا أعلم" . فالأمور التى يطرحونها وقد غلفوا نبراتهم بالخفة واللامبالاة ، لها مدلولات غاية فى الخطورة وهم يعلمون . يودون الايقـــاع بى ليس إلا . أنا أعلم أن الأحمر هو لون عاهرة بابل ، لون الدم الحـــار ، وشهوة الجسد ، لون الغوانى المفضل فى قماش الساتان اللامع ، لون الجنس بلا حب .

الأســـود لـــلموت ، والهيـــبة ، الأســـود صعيدى صارم . لا يأبه بـــالعواطف ، لون تطبيق الحدود . فاصل . هو كذلك لون العدم ، لون الكفر والالحاد .

كيـــف يختار المرء ؟ كيف يرد وقد سلبوه جعران القلب الذى كان يحميه من الوحش فى المحاكمة . الجعران الذى كان رمزاً للحياة ، زال عنه لونـــه الفيروزى ، سُخطَ حشرة محنطة لا تَذكر إلا عندما يذكر الموت . زال الفـــيروزى والذهـــبى والأبيـــض والطوبى والأزرق ولم يبق من كل الألـــوان ســـوى الأحمـــر والأسود . جهنم والموت: سواد الوجوه ونار العـــذاب . كيف يختار المرء إذا انتفت الرحمة من قلوب الحكماء ، كيف يخـــتار وهو مشدود فى فراغ ضيق ، أن يقاوم انطباق عالمين على وجوده وأقاوم حتى الرمق الأخير حيث يستعصى النوم ، ويحتل الحلم فى الصحو محل العقل الواعى ، وتنم الأقوال عن حياة أخرى لا يفهمها أحد :

- اختارى يا أنت ، يا هم .

- اختارى إما حياتك أو حياتهم .

وأختار أن أموت أن أنا هذا أكثر احتمالاً .

موتى يا أنا ، موتى . عنيدة أنت ومتشبثة . كافرة متطاولة . شيطانة متعاظمة . تظنين أنك جبلت على الاختيار . موتى يا أنا .

أبتـــلع الحـــبة الوردية الصغيرة ويجئ النوم يغشانى . فأطمئن عليهم وأخـــاف المجهـــول . لا أقـــاوم الموت سوى أنى أخاف المجهول . لحظة الاستســـلام لـــلمجهول . تلك اللحظة فقط أخاف . غير تلك اللحظة لا يهـــم . أبـــاركهم قـــبل أن يغـــلفنى الظلام . أباركهم لأنهم يعلمون مايفعـــلون ، أقويـــاء يخـــتارون عن قوة وعنفوان ، ويقتلون بالصمت . الصمت أحدّ وأنكأ . الصمت سمة الحكماء .

الصـــمت لـــك وعليك . إذا تحدثت نظروا بعضهم إلى بعض نظرة عارفة . وإذا لم أتحدث نظروا بعضهم إلى بعض نظرة عارفة .

الآن أنا آكل بانتظام ، وأنام بانتظام ، ولا أحادث أحداً .

مـــا الفـــارق بين أن يحكى لك أحدهم حكاية وأن يصف لك كيف حكى أحدهم حكاية ؟

الفـــرق هو بين راو يحكى حكاية الصنم ، وبين الصنم . أنا الصنم . أنا المج البلو دلف الذى أفرغ من ريشات الكتابة ونشفت محبرتها ولم تعد بجانبه أوراق . لم يعد ملكى شئ . أصبحت أنا ذاتى شيئاً .

شئ حجرى لامع معتنى به تماماً.. له عينان وأنف وذقن وفم وأذنان ، حاجـــبان ورمـــوش وشعر ، لا يطيل النظر فى عينى أحد ، حتى لايرى صـــورته فى مرآة العيون: شئ لا أكثر . بلا صوت ، بلا حكاية ، بل ، بلا لغة . كيان يسمع ويرى فقط . تحت الملمس الحجرى دماغ يتطاير فيه شرر النيرونات التى لا تهدأ . مفاعل ذرى صغير يولد طاقة فظيعة ، لكن كل تلك الحركة لا تظهر ولا تبين على ملامح الرأس الحجرى الساكن ، الذى حكم عليه بالخرس بعد درس فى الحساب .

كيـــف يقـــاوم المرء القدر بالكتابه لو أن الكتابة قدر؟ أمسك بالقلم وتتشـــابح أمـــامى الورقة البيضاء ، عليها أحرف سوداء صغيرة منمقة : "مستشـــفى للأمراض العقلية والنفسية" ، حتى لو كنت أعرف الكتابة ، لغتى لا تقرأ ، كل اللغات أجنبية ولغة أهلى لاترقى سوى للحكى ، وكل حكاياتى أجنبية ، لو استطعت الحكى . من يسمع ، حتى لو انفكت عقدة

اللســـان من الحجر ، كل القصص كتبت . كل ما يمكن أن يقال قيل . لم يعد هناك صدق سوى فى الصمت . من همه حكاية مثل تلك :

" كـــل الأوطان أوطانى ولذا أنا بلا وطن . كل اللغات لغاتى ، ولذا أنـــا بلا لغة . فرد وحيد بلا جماعة ؟ وجماعة ضئيلة تصرخ فى البرية؟ من يشعل مدفأة فى حر ربيع القاهره . من يشترى الثلج فى القطب الشمالى . الذيـــن لايقرأون ولايكتبون؟ أم الذين يكتبون أجسادهم ذاتها مساحات للفهم والتعاطف ولا يقرأهم أحد . خريطه تليق بالمجانين :

المحيط الرمادى ، والصحراء ، الصخر بين الأعشاب، وحقول القطن، "شـــين فـــين" ، و"فينا جيل" ، أحزاب للتجمع والناصرية ، "كاد ميللى فالتشه" ، أهلاً ومرحباً ألف مرة ، صراع الساسة ، هو صراع الساسة ، والعـــنف المسلح والشعر فى الحانات ، والخمر فى البيوت ، قاعة صمويل بيكيت فى مبنى الفنون الجديد ومالون يموت ويحيا بلوم بالعربية ، والنهر فى الســـماء والـــنهر فى النيل ، القهوة بالكريمة والويسكى الأيرلندى فى مطعـــم صغير فى القاهرة ، والشحاذ، ن أمام قهوة بيولى فى دبلن . الفقر هـــنا والفقـــر هناك . بيرى بالكاد تكتب ، وآمنة بالكاد تكتب اسمها ، مستشفى جوناثان سويفت ، مستشفى بيهمان ، رحلة القطار إلى دانليرى وحلوان والمطر . الكلام الشاطر . وأصابع الاشارة الدامية :

– المرأة المخووتة التى كانت تسكن هنا ؟

– ذات الرداء الأسود ؟

- شيزوفرينيا ؟

- الفتاة التى كانت تسكن هنا ؟

"تعـــافت" . . قالت بيرنى "سيدة النظافة" بفخر يتخلل خطها الردئ وكأنها مسؤولة عن صحة كل الناس ، و"عادت إلى وطنها" .

- عادت إلى أمها ؟

أكاد أرى وجهه وهى تفتح له الباب وتدخله الغرفة الصغيرة . وأتابع تجــوال بصـــره عـــلى الحوائط ، الجرداء الآن . وأسمع صوته من خلال خطابها القصير اختصار من لا يكتبون إلا تحت وطأة الضرورة القصوى :

- وزهرة النرجس ؟ هل أخذت البوستر كذلك ؟ زهرة النرجس ؟

لم تترك شيئاً .



التيه

مــــددت جسدى على السرير أتأمل الحائط . فجأة فتح باب الغرفة بعنف ودخلت آمنة مقطبة تحمل علبة الخياطة البيضاوية القديمة ، فدخلت معها رائحة الملاءات البيضاء وقد حمصتها شمس الشتاء ، والمفارش المنشاة المطــــرزة بالبرودرى . تدخل معها أيضاً رائحة بودرة التلك والكولونيا ، وأسألها :

– مالك ؟

– أنا برضه اللى مالى ؟

– فيه ايه ؟

– مش عارفه فيه ايه؟ قومى اتأسفى لأمك .

كانت ولاءاتها منحازة تماماً للأمهات:

– صحيح مايعرفش قيمة الأم الا اللى اتيتم .

– أنا مازعلتهاش يا آمنه .

– أمال هى بتبكى من الصبح ليه؟ أبويا اللى زعلها؟ مش انت قعدت تصرخى فيها زى ماتكونى طرشه . وصوتك جاب آخر الشارع ؟

- زى ما تكونى خرسه يا آمنه مش طرشه .

- طرشه خرسا ، أهو كله محصل بعضه .

تخـــرج وتخبط الباب وراءها وقد نسيت علبة الخياطة على مكتبى ، ولاتأخذ معها الغضب .

افـــتح علبة الخياطة فتفوح منها الصور . صندوق باندورا تتطاير منه كـــل الشــــرور . فى صباحات الشتاء المشمسة تجلس أمى مرتدية جونلة صوف وبلوفر فى ركن فى البلكون . ساقاها داخل جورب شفاف ، وفى قدميها "بانتوفلى" مزين بفروة صناعية بيضاء ، ناعمة . تفتح علبة الخياطة البيضاوية وتتناول المقص .

تقص أشياء صغيرة فى دقة متناهية . أجلس بجانبها على كرسى مقابل أراقـــبها ولمـــا أحدثها لا ترد . بينى وبينها قوام من الزجاج المصقول ، يسمح للصور فقط أن تمر ويمنع الأصوات . أسكت وأراقب المقص .

النقطة التى يلتقى فيها حد المقص بالحد الآخر ، تلزمها أشياء أخرى كـــى تكـــتمل ويحدث القص . أوراق أو قطعة من النسيج؛ وعلى نفس القـــدر من الأهمية: اليد التى سوف تدخل فى فتحتى يد المقص فيبدأ خلق جديد: فستان أو قميص ، أو عروس ورقية ، أو حتى قلب أبيض باهت ، وإلا ما حدث شئ .

اليوم فى بيت أبى لا يحدث شئ . أنظر إلى حدى مقص الخياطة ، كل حد ملقى فى ناحية . المسمار الصغير الذى كان يجعل المقص يبدو كفكى سمكة مفترسة ، ضاع . وقع ولم يستبدله أحد . قطع القماش فى دولاب أمـــى فقـــدت قوامها وتراخت . وأوراق اللعب الزاهية . أوراق القص واللصق التى كانت دائماً ملازمة لعلبة الخياطة تموجت ونشفت ، كوردة ذبـــلت بين طيات كتاب . والأوراق البيضاء فى درج مكتبى السفلى ، فقـــدت تحديها ووعدها ، نالت منها الرطوبة ، حتى لو قطعت لا يصدر عنها ذلك الصوت الخشن ، قماشتها المنشاة صارت خرقة مبللة .

شـــئ مـــا أصاب روح الأشياء . شئ ما ذهب عندما وقع المسمار الصـــغير من مقص الخياطة ولم يستبدله أحد . تباعدت الأشياء وتراخى نسيج الهواء نفسه فى البيت ، منذ مات أبى؛ عندما يتوازى الزمان والمكان فلا يلتقيا ، تنتفى الاحداثيات . عدت لأقيم فى التيه . ويتضاعف الفاقد مـــن الكـــلل ، ويتضاعف الاجهاد . تصبح الحياة قوائم متراصه وتفقد الشفرات حدها ولا يحدث شئ .

كـــل يـــوم نصـــحو من النوم . كل يوم نأكل . نستحم . نتحدث بلا حماس . نتلهى بالصور تمر أمام أعيننا على الشاشة الصغيرة ، ونستمع إلى أخـــبار العالم من صوت كأنه هو الآخر فقد مسماراً صغيراً ، فأصبح يحـــاول قضـــم الكلمات لكنها تخرج هى الأخرى طرية ، لا قوام لها ، تـــتراص ولا تخـــلق معنى ، ومن ورائها تتكرر الصور: السيد الرئيس ،

السـيد الـرئيس ، السيد الرئيس ، وورود فى فازة كريستال طويلة ، وكرسـيان وطاولة . ولا شئ يحدث لا فى بيتنا ولا فى بيوت الآخرين . وكأن الناس كلهم أصبحوا لا يدرون من الحياة سوى تقليد حركاتها من ذاكرة تتلاشى . الأمس لا ينتج اليوم واليوم لا يتسبب فى الغد . المكان شاسـع ، وتاريخه طويل واناسه كثر . توازيات الزمان والأماكن تكملها قائمة ثالثة ، هكذا خطوط مستقيمة : هنا حد مقص ، وهنا حد مقص ، هـنا أوراق وهنا نسيج ، باراليل ، باراليل ، باراليل ... تمتد القوائم من ذهـنى إلى خارجه ترصد ولا معنى فى ثلاث لغات: مع: شخص سازج ، بسـيط ، يسهل خداعه لأنه يحفظ ، يصم الدروس صما ، ويكررها وفى هـذا امتيازه . مُعيد . يخاف التجديد ، ترعبه التحولات ، يركز كل همه فى قدرته على التكرار والاعادة .

مـوس: "أو شوكولا" . حلوى من الشيكولاته لا قوام لها ، تغرف بالملعقة ويضاف لها الكريم شانتييه نكاية واستزادة من الغثيان .

نوظيا: الصيف بطئ مثل ذبابة دائخة . الفراغ التام . جراهام جرين، والأمـريكى الصامت فى جزيرة هندية ، مستعمرة ، مراوح الهواء تئز . ليس سوى رائحة الخواء .

تلك القائمة: كريهة . القميص كل أزراره مزررة . مزررزة . وجهه أحمـر وشـعره أشقر محمر . بياض جلده مسلوخ . فى المطار يحمل أمتعة كثيرة ، عائداً فى أجازة . زوجته عيونها ميتة من الاهمال

الفـتوة : شاب أسمر قوى نحيل ، مصرى الجنسية ، عيناه طيبتان ، تشوبها لهجة خليجية ويقتل ؟

أبانا الذى: لا يذكر من التاريخ سوى تاريخ الأنبياء .

التوثيق : فى المحاكم للعقارات .

الصـحف والمـدارس والجامعات ، الشوارع والضجيج ، القمامة وروائح الطبيخ . والعمارات من الطوب الأحمر . الأبواب حديدية على "السلاقون" والعمارات من المرمر الأخضر ، مداخلها شاهقة ومصاعدها مكيفة . حد مقص وحد مقص . المسمار نعم وسقط فكاه وتوازيا .

باراليل .. باراليل ..

شـاطئ بيانكى فى العجمى ، أمواجه خيولها رخوة ، كسولة ، تميع على الرمل بلا روح ، تموت قبل أن تصل الشاطئ ، فى أغسطس . على اليسار غابة كثيفة من الشماسى ، وعلى اليمين كذلك . الشماسى على السـيمين ، مهترئة قبيحة ، يجلس تحتها كلها رجل عائد فى أجازة ، يلبس فانـلة بيضـاء ، تؤكد كثافة شعر جسده الذى يطل ، من تحت الأبط ، وعلى الصدر . كرشه منتفخ فوق مايوه لا لون له يؤكد هو الآخر كثافة شـعر السـاقين حتى أعلى الفخذ . أصلع ، ولم تطله شمس اليود بلون الصحة والجمال بجانبه امرأة تقزقز اللب . محجبة ، بيضاء تماماً . وجهها بـلا ملامح وبلا مشاعر . لا يتحدثان . يشربان المياه الغازية وينظران فى

الفــراغ . يشـــلح الرجل فانلته وينزل البحر كل برهة ويعود يتجفف ويـــرتدى الفانـــلة . المرأة تتصبب عرقاً ولا تغادر مكانها على الكرسى الخشبى الصغير .

عـــلى اليســـار الشماسى زاهية . تحتها "كولمانات" زاهية . كحلى وفيروزى وأبيض شاهق . ولا يجلس تحتها أحد . الكل فى البحر أو كأنه فى الـــبحر . تهب رائحة المجارى بين حين وحين . عندما تصل الرائحة إلى أنـــف الفـــتاة التى كانت قد وضعت الكريم "الكوبرتون" على جسدها الممشوق وجلدها برونزى تماماً يبين معظمه من بين قطعتى المايوه البكينى الصـــغير جداً ، للمرة العشرين ، قمب واقفه وتمد يدها إلى شنطة كبيرة فى نفـــس لـــون المايوه ، تخرج منها قطعة قماش ، فى نفس ألوان المايوه كذلـــك ، تلفها حولها فى لا مبالاة ، وتذهب إلى "الكولمان" وتخرج علبة بيرة "هاينيكن" مثلجة ترشفها وهى واقفة . تخرج من الشنطة "سبادرى" بيضـــاء مـــريحة تضـــعها فى قدميها ببطء وتلوح لأحدهم وقف يتحدث وأحدهـــم عـــلى الشـــاطئ ثم تأخذ الشنطة وتمضى فى اتجاه الشاليهات الخلفية . عندما يفهم الرجل الها ماضية ، يوقف حديثه مع صاحبه لحظة ويلوح لها بأنه سيلحقها ، ويعدل من وضع المايوه ، "الريبوك" .

عـــن اليمين يقف الأطفال يرقبون الأطفال الملتهين عما حولهم بلعب الشـــاطئ فى ألوان زاهية ، يغلفهم صوت بائع الفريسكا ينادى من زمن آخر على بضاعة لايشتريها أحد .

كـــنت مـــازلت أحـــدق فى محتويات علبة الخياطه التى نستها آمنه فى غرفتى عندما وصلنى صوت أمى عن بعد تقول:

– كيمى متعبة قليلاً يا أمينة . . اذهبوا أنتم .

فى قفزة واحدة انقضضتُ عليها:

– لـــماذا تصـــرين على إلغائى هكذا؟ لماذا لا تسألينى إذا كنت أود الذهاب معهم إلى الشاطئ؟

– لأنـــك كـــل مرة تذهبين تعودين متعبه وتمضى أياماً تبحلقين فى السقف .

فأصرخ فيها ، لكن لسانى يتمرد على صياغة الهواء حروفاً فلا تنطلق من جوفى سوى آهة طويله خانقة مغلولة وتبكى أمى .



المدينة

- حضرتك درست الموسيقى وتخرجت فى قسم الأصوات بالكونسرفاتوار .

قالت المذيعة ، فرد الشاب تلقائياً:

- ان شاء الله .

الوقت اختلف . غبت عشر سنوات . لابد أن أشياء تبدلت . إذا أصبح الناس يقولون ان شاء الله عن البارحة . لابد أن زماناً ما ومكاناً ما التقيا وحدثت أشياء والا كيف أصبح الناس يتحدثون عن المستقبل فى صيغة الماضى ؟ وأصبح لايحدث شئ .

بيت أبى هو بيت أبى . لم يتغير فيه شئ . وغرفتى هى غرفتى . المج البلو دلف، والأباجورة ، والتليفزيون أرفف الكتب والسريرين "الكابى"، والموكيت والبلاكار . وكان العيش هكذا ممكناً إلى حين . وبعد حين أصبح العيش هكذا غير ممكن . كان لابد من معين . الخطابات لشيفون ، وايزابيل ولى هوا والصلاة :

"نعم أصلى . أنت تظنين أننى أصلى لأخدع نفسى بطمأنينة زائفة . تظنينى أصلى بدلاً من أن أواجه الواقع . بدلاً من أن أثور . أغضب .

أفعـــل شـــيئاً مهما كان حمقه . ربما ، فحتى صلاتى ... كيف أصف لك صـــلاتى . شـــئ تافـــه وحيد . صوت خافت ضعيف ، لا يؤثر فى شئ ولا يغير من شئ ، لا يوهمنى حتى أنا ذاتى إنها تأتينى بنفع ما ، فقط تجبرنى على القيام بحركات تدربت عليها فى الصغر . هى ذكرى الصلاة تفتعل ولاتخدعـــنى وأعـــلم أن الايمـــان لايستعاد بالصلاة لكنى أكررها تشبثاً بالذكرى .

أيـــام كنت أتدرب على عدم الحياد عن الصراط المستقيم على بلاط الرصـــيف وأنا عائدة من المدرسة وقلبى يدق ، والحياة تحدث بقوة ولها وقـــع ونبض . أحياناً ينتابنى سأم عظيم فأكف ، ولا أبارح سريرى أيام بطولهـــا ، لا آكل ولا أنام ولا أستحم . أستلقى على ظهرى بالساعات أبحـــلق فى السقف وأستعيد بطء الموت الذى ماته مالون على يد صمويل بيكيـــت . كـــم كنت أمل وأنا أقرؤهم ، كل الذين وصفوا الحياة التى لايحدث فيها شئ . كم سئمت كتب بيكيت وسارتر ، وجيد ، وجويس وكم زاد كرهى لهم وأنا أحيا الحياة التى وصموها . كنت أظن أن الكتابة يجـــب أن تكون احتفالاً ببهجة الحياة ، وأن بهجة الحياة تنتظر فى العطفة التـــالية ، لتعـــلن عـــن نفسها ويرقص الناس فى الشوارع فرحا بانتهاء الحـــروب والفقـــر والمـــرض فى كل البلاد . كنت أظن أن مزاج السأم والغثيان هو شئ خاص بأوروبا وأن أوروبا شاخت واستهلكت عنفوانها وقدرتها على الغناء الطفولى الحر الطليق. ولم أع الدرس حتى وأنا أكتب :

ان الشـعراء لايكتبون عن الأماكن والأوقات وانما عن نقطة تلاقيها فى الـروح . الشعراء يكتبون من موقع المسمار الصغير الذى يجعل شقى المقص فكاً يصنع المعنى ، وأن بهجة الحياة شئ لايخص الشعراء وانما يخص الحياة .

* * *

لا فارق اليوم فى الصلاة بالشعر أو الصلاة بالقرآن . العالم الهوس . الواقـع أكثر مما تحتمل الأذن ويسع البصر . الضجيج هائل ومستمر . الضـجيج الآن ليس فى رأسى وحده . ليس أصواتاً متوهمة تدعونى لقتل نفسـى حتى يحيا العالم . الضجيج شمل العالم ، أصبح هو العالم . ضجيج حقيقى يصم كل الآذان . كلاكسات وميكروفونات وبشر هائمون على وجوههـم فى الطرق . الألوان صارخة والأصوات زاعقة والكل يزاحم الكل . المدينة صارت وحشاً تحيا على جسده الطفيليات من كل نوع . الديـدان فى مـاء الشـرب والنفايات الكيماوية فى الطعام ، الأسمنت فى رئات الأطفال ، والكل يزعق والموسيقى تصخب ، والأضواء تلعلع . كـأن لحظـات جنونى ، أصوات دماغى ، صخب هوسى ، لهاث رعبى ووساوسى تضخمت وابتلعت العالم وصارت العالم وانتفى الأمل فى لحظة صمت :

تقــف فيهــا "باعوضة طويلة السيقان على سطح نبع ساكن ومثلها يتحرك الذهن على الصمت ، مثل فتاة ترقص على شاطئ مهجور وتظن أن أحداً لا يرقبها ، مثل قيصر فى خيمته والخرائط أمامه ، عيناه مركزتان عــلى الفــراغ .. مــثل مايكل أنجلو معلقاً على سطح كنيسة البابا ، والفرشاة تروح وتجئ فى الصمت مثل باعوضة طويلة السيقان على سطح نبع ساكن يتحرك ذهنه على الصمت" .

حــتى هــذه الصلاة ، التى كانت تدعو الروح إلى الجسد المشوش ، وتهــدئ من حس الفجيعة ، تطمئن وتعيد العالم إلى رشده بطل سحرها وصــارت وسط الصراخ فى الشارع والزعيق فى الميكروفونات ، مفردة أخــرى من مفردات التوازيات التى لا تلتقى . فى لحظة تخيلت : ربما فى الصلاة القديمة قدرة بعث سحر الصلاة فى الروح . الحديد يفله الحديد . الصــلاة القديمــة فى مواجهة طريق التكرار المخدر اللطيف ، تحت وطأة الضــجيج ، تبطل الضجيج . فرحت أقرأ القرآن لاهثة والخطر المعهود يحــدق بالــلحظات ، تلســعه سياط الميكروفونات ، المتوعدة بمزيد من الضجيج ، فيتسارع قلبى :

" ربــنا لا تؤاخذنــا ان نسينا أو أخطأنا ، ربنا واعفو عنا واغفر لنا وارحمنا . أنت مولانا فانصرنا على أنفسنا لو كنا لها ظالمين" .

خطأ . خطأ . وأعيد الكرة لاهثة مرتين ، انصرنا على أنفسنا لو كنا لها ظالمين .

ويعلو صوت حارس التكرار : أخطأت بدّلت كلام الله هذا جرم عقابه لا لبس فيه ولا ريب ولا يلتفت فى العقاب عليه إلى النيات هكذا نزل العقاب ، وصار الحكم نهائياً ، من وقتها سوف تشكين فى أنفاسك ذاتها . تشكين فى بصرك وسمعك ، والفؤاد لايتبين لك أبداً الضوء الأبيض من الأسود . تظلين هكذا تتأرجحين كل نفس تأخذين هو لك أو عليك . يحسب ما عليك فقط ، بيت أبيك تذكار ليس إلا لأيام ولّت ولن تعود ، غرفتك فى بيت أبيك ، سكنى مؤقتة لا تملكينها وإلى أن يتسنى لك الرحيل . مدينتك أصبحت ليست من هذا العالم ، وبلادك ، ماكنت تقولين له "وطنى" ، صحراء قفراء . وأحياناً فتاة سمراء خجلانه ، ادخلوها بسلام آمنين . نساؤها لعب ورجالها عبيد لمن حكم غطى وشك يا مرة . يا حرمة . اخفضى صوتك يا عورة . غضى البصر عم ؟ عم أغض البصر ؟

وجاء صوت أفرغ كل ما برأسى من أصوات :

– عن كل شئ .

الحكايا

الحكايا دائما للاستشفاء . الحكاية لا تروى مرتين ، حتى الكابوسى منها ، لكن الأشياء التى نفقدها روحها ، نصفُها ولا نرويها تكرر نفسها وتضـــمن الاطمئـــنان التام ، كل مرة ، هى هناك فى المتحف ، فى غرفة الصالون لاتبرح ، لا تغادر ، لاتتبدل ، جثة محنطة لم تحلك . ما كان يتسنى لى أن أحكى والخوف من الكذب ، جعلنى مضغة سهلة لمن يسترزقون من الكذب ، ينظفون العقول من أوساخ الذاكرة وهم يعلمون ، ولايطرف لهم رمش . حتى الآن أخاف أن أذكرهم بما كانوا يستحقون ، فيكذبونى ويصـــدقون ، من البيت للمكتبة . لاتحادثى أحداً . لا تخرجى مع أحد لا تـــتزاورى . لاتشـــاركى . لاتكـــتبى حرفاً إلا بعد أن ترينى اياه . أنا اســـتاذك ، الآخـــر هذا بالاسم فقط . كل يوم يدق جرس التليفون فى الحادية عشرة مساء . كل يوم اثنين تجئ الزهور ، عبر خمسة آلاف ميل ، حـــتى بـــاب بيتى . والخطابات . الخطابات تحوطنى وتحمينى ، من خطر لا أدرى كـــنهه . لمـــاذا كل هذا الحرص ولماذا عينوا لى هذا المشرف بالذات ؟ كلما تحدث بضعة كلمات قال: تعلمين؟ وتحمر وجنتيه وتضيق عيـــناه الضـــيقتان أكثر . وكنت فى البداية أقول: نعم ، وأحياناً : لا .

ولم يكن ذلك يعنى شيئاً لأن "تعلمين" تلك كانت لزمة ، يرقم بها الكلام وينقطه ، وعندما أستعيد ما قال ، أعرف أنه لم يقل شيئا . واحد يعيش فى قـــارة أخـــرى ويقـــول: لا تعطـــى أحداً ما تكتبين إلا بعد أن أراه أنا ويسيسجنى بالحب والغيرة ويمنعنى أن أحادث أحداً . وعلى بعد خطوات اســـتاذ آخـــر لايقـــول شيئا . لا يمد يد العون ، وعندما ألقى عليه تحية الصـــباح فى الفناء لايرد . وأتساءل: لم؟ وبين هذا وذاك دمغة الدروس القديمة فى الصغر :

- الأســـتاذ لايناقش . المريد لايبدأ بالكلام . الرجال قوامون على النســـاء ، لأن النساء لهن نصف عقل وجسد تام ولذا فلهن أيضاً نصف دين . وأبى يقول عن الرسول عن عائشة: "خذوا نصف دينكم من هذه الحميراء" . ويضيف فى لوزعته المعتادة: ياجحشة !

وبـــين هذا وهذا وذاك تطل من بين طيات الكتب حروف مفجعة ، تعكسها العيون حول مدافئ الصداقة المتوهمة تنفى وتلغى وتسئ وتهزأ :

"يالهـــا مـــن حياة ، حياة النساء المسلمات . ياله من دين ، دينكم يســـويكم كأسنان المشط ، لايكاد الواحد فيكم يعرف الفارق بينه وبين أخيـــه يسجدون أمام الكعبة سجدة رجل واحد . فاشست . نازيون . أنتم كما كان البعض هنا ، ولكنا تخلصنا من كل هذا الآن . انظروا إلى أنفســـكم . تذكـــرونا بالذى مضى . صورتنا القبيحة فى المرآة . كيف

يتسنى لك أن تفهمي؟ أنت لم تعيشي الحرب فى أوروبا . لم تصطك أسنانك من البرد والجوع . لم تفقدى أحباء فى أوشويتز" .

لماذا لا يفهم الناس الشر إلا فى لغة أمهم؟ الأخبار الدامية من قم وتبريز . "جواز سفر" دموى هذا الذى تحملون . وأدافع . جواز سفرى عربى . تكرهون اليهود . عنصريون . جواز سفرى مصرى . أدافع . عما أدافع . كل ولاءاتى مدانة مسبقاً . عما أدافع . جواز سفرى؟ لغتى ؟ دينى ؟ وأدافع: دين قام على دينكم ، هذا هو كل ما فى الأمر .

وفى لغتى حتى الدفاع هكذا هرطقة وفى ذاكرتى لم يتفوه أحد بمثل هذا . ولا أستطيع انشاء شخوص مشخصة أحملها مثل هذا . كل انشاء من الخيال وكل الخيال كاذب وأنا لا أريد أقل من الصدق والروايات كثيرة وفى لغتى الروايات لاتروى من الخيال ويوثق لها: صحيح ، ضعيف وهكذا أما الرسائل فوثيقة الصله بمصالح الدولة مترامية الأطراف ولذا فهى مراقبة .

- أنا لا دين لى قالت شيفون ، وهى تعيد كتاب ادريس شاه إلى رف مكتبتى . أنت لا تصدقين تلك الخرافات بالتأكيد؟ ونظرت لى نظرة متشككة .

بعد أربعة كؤوس من البيرة السوداء ، ضَحِكتْ ضحكة صفراء قصيرة :

- أنا أفهم ، فقد اضطرونى للزواج فى الكنيسة . أدرت ظهرى لكل ايمانــاتى . تنصلت من كل الغضب ، وتخليت عن كل ما آمنت ، حتى يختموا على أوراق زواجى ختم الاعتراف . حتى لا يكبر أولادى لقطاء .

أنا أحب الأطفال كثيراً .

كــنا نــتحدث عن مجتمع ترينيتى ، وايرلندة جيمس جويس ، ضيق الأفــق وتعــالى الانجــلو ايرلنديين . طبقيتهم القميئة ، واحتقارهم لغير البروتستانت .

فقلت : نعم أعلم .

ولما جاء هشام إلى دبلن سعدت كما لم أسعد من قبل فى هذا المكان ، جــاء من يفهم أن الاسلام ليس الفاشية ، ويعلم أن بروكلمان متحامل بــلا ســبب واضح ، وان مصر ليست ليبيا ، وليست طهران ، ويعلم فى أى الســياقات قيل عن النساء انهن ناقصات عقل ودين ، ولما انتفى السياق كيف ظلت النساء بلا عقل ونصف دين ؟ فأسأله :

- ماذا أتى بك إلى أيرلندة بالذات ؟

- أنت ربما . قال فى تردده المعهود .

- ستبقى ؟

- سنرى ، ولم يفصح أكثر من هذا .

وجـــد عملاً وبيتاً ، بلا ضجة كبيرة استقر أو بدا كأنه استقر . يمر عــلى بعد العمل ونذهب إلى السينما أو المسرح . نقرأ ونتحدث أحياناً حــتى الصــباح ونعــلم أن كل منا وحيد وحدة لاتربئها هذه الصحبة بــالذات ، عــلى دفئها وأحياناً صخبها ومحبتها . صحبة لطيفة أكثر من الــلازم ، ليســت بهــا عركة ولا تحرك الألم ، لكنها تشجع على خرق الأعــراف ، وتذكر بالحدود فى آن . لاتدين الشطط وتراقب . تجعل من الرقيب شخصاً ملموساً . له عينان ولسان واذنان ، بعد أن كان تهويمات تخفــت طرقاتها أو تعنف دون أن يكون للمطرقة وجه يواجهه المرء ، يحبه ويخشــاه ويخشى فقد صحبته ودفء اهتمامه فى عالم لا يبالى لأنه مؤقت ويعــلم أنه مؤقت على نحو عنيف صداقاته مؤقتة وعداواته كذلك . مثل كــل عــالم آخر ولكنه هنا متكثف . البيت يشهد مجيئاً جديداً كل يوم ورحيــلاً كذلك ولا يفرح أحد ولا يحزن لذلك سوى أولئك الذين تبعد أوطانهم أكثر مما تتحمل ميزانياتهم أسعار تذاكر الطيران .

كنا من نفس المدرسة ، وكان أهلنا أصدقاء . وكنت أسأله أستشف من اجاباته ضوءاً يرشد بعد أن زالت عن الطريق كل الارشادات :

- بعدما أضرب المرشدون الأجانب عن العمل فى القناة ، ماذا فعل أبوك ؟

ويضحك : فعل ما كان يفعله طوال الوقت: يرشد المراكب .

- بأى لغة ترشد المراكب ؟

- بلغة البحر ، ويرنو بعيدا .

- وصلاح جاهين ؟

يعود إلى وقد فاجأته :

- وايه دخل صلاح جاهين ؟

- مش عارفه . أصل الارشادات أصبحت كده ، بلا معنى ، وأضحك له: مغيظة أذكره : غدر الزمان يا قلبى ماهوش أمان .

وحاييجى يوم تحتاج لحبة ايمان .

قلبى ارتجف وسألنى . . أأمن بأيه ؟

أأمن بأيه محتار بقالى زمان .

يبتسم فى صمت ، فأقول :

- تخاريف ، ماتدقش .

هنا لم يكن أحد يعلق إذا ضحك المرء بصوت أعلى مما يجب ، أو جلس دون مراعاة ضم الركبتين ، أو أكل بشره واضح ، أو حتى سكر على الملأ ، أو مارس الحب دون حب .

- انظرى ، قال ، ثقافة السوقة هى التى تسود . أفهمت لم يدعونك "الأميرة" فى الجامعة ؟

- أنـــت تـــبالغ ، ثم أنى هكـــذا رغم أنفى ، لو لو يمهروا كل خلية فى جســـدى بخـــتم مـــا يصح وما لا يصح لاخترت حياة أولئك الذين تدعوهم "السوقة" .

- ربما .

- بل أكيد . ماذا أجنى إذا كنت أميرة ؟ أميرة نائمة؟ أولد فينيمونى، وأصـــحو عـــلى الموت يقبلنى فأذهب معه ، وأنام بعدها إلى الأبد . ماذا أجنى ؟

- الاحترام واسم يذكر بالخير ، وذكرى طيبة لأولادك .

- ثمـــن بـــاهظ . ثمن أغلى من الحياة ذاتها . أفرّغُ من حقيقتى ، من روحى ، وأحشى بالاحترام . أصير عروساً من القماش ، محشوة بالقش . هل حكت لك أمك حكاية ساحرة الشمال الطيبة وحذاء دوروثى الأحمر العجيب ؟

تبدل وجهه ، حينئذ ، تباعد ولكنه أجاب :

- رأيت الفيلم .

- رددت ، أنا كذلك .

وهنا بدأ المطر ينهمر بغزارة ويضرب النافذة بعنف ، فقال أحدنا:

- There's no place like home



الخوف

أضع أشيائى بسرعة فى الحقيبة . حافظة النقود ، النظارة ، مرآة صغيرة وفرشاة شعر . تقف آمنة تحدق في وأنا ألتقط سلسلة المفاتيح ولما تلتقي أعيننا أنصاع لأوامرهما الصامته . أبحث عن أمي فأجدها قد ارتدت قفازاً أبيض من القطن تزيل التراب من على أوراق الزرع فى الصالون ورقة ورقة وتتمتم أشياء من تحت أنفاسها . يعلو الحنق فى جوفى فأوئده وابتسم ، أمى تحادث الزرع .

– ما تتأخريش . تقول . وتضيف :

ماتسوقيش فى الضلمه .

المنزل على الشاطئ . شاطئ بيانكى فى العجمي والبحر على بعد أمتار . لكننا نجلس حول حمام السباحة الفيروزى البديع . عندما كنا صغاراً كان أبي يجئ بنا إلى هنا . لكن "هنا" كان مكاناً مختلفاً ، يذهب إليه الناس هرباً من زحام الأسكندرية فى الصيف ، ونسكن شاليه على بعد خطوات من البحر أيضاً وبالطبع لم يكن به حمام للسباحة ، ولا كان فى حديقته الصغيرة نخل ملوكى ، وكان مطبخه بالكاد يسع نفرين . هنا

الآن مــنزل كــالذى يسكنه مرتادو الريفيرا الايطالية ، تكاد تنبثق عن درب الحصباء الأبيض المؤدى إلى بابه الرئيسى عربة رولزرويس صفراء .

مــا توالــت السيارات فى الوصول كان من بينها بى أم دبليو سماوية فضية ببابين .

يــبدأ رزاز خفيــف ، ويضــحك الجمع الملتف حول حنية فى حمام السباحة ، ربما تذكروا عندما كان المطر يهطل فى فناء المدرسة وكم كان ذلك يثير فى نفوسنا بهجة ، كأننا منحنا أجازة غير متوقعة ، مع أنهم كانوا يجمعونــنا مــن الفــناء لو بدأ المطر وقت الفسحة ، ونقضى "البريك" فى الفصــل . جمعتــنا مدرســة واحــدة والآن جمعتنا ذكريات الصيف فى الأســكندرية والعجمــى وشــاليه مسيو بيانكى ، استراحة الكلوب مديــتيرانيه التى كانوا يجلبون لها الماء بالعربات من الدخيلة . والبدويات بائعــات الــتين فى الصباح الباكر والآن كل هذا الترف ، خلال عشر ســنوات فقط؟ "الكانابيه" تعلوه طبقات الكافيار الروسى ، صينية الجبن تتباهى بالامانتال والبريى والأولد أمستردام ، الفوا جرا فى أوانى فورتنام أند ميسون الفخارية التقليدية ، والكؤوس تفور بكل الألوان: الشامبانيا كاسيس ، والنبيذ موتون كاديه ، وفى هذه الساعة من الصباح .

– أيــام الله مــا يــرجعها ، قالت أمينة ، وهى تمد يدها إلى كأس الكمبارى بالصودا .

ويــنظر لى الآخــرون يستشفون وقع كلامها على . كنا فى ابريل ، وكــان ســحر الأيــام أسود فرددت: حدث مثل هذا بعد أيام الرعب فى فرنسا ، ثم اتزنت الأمور .

كاد أحدهم ينطق ، لكن أمينة وضعت يدها بخفة على فخذه تسكته، فســكت وتبادل الآخرون نظرات عارفة ، وتحول الحديث إلى الطقس . هــلّ علينا صاحب الجى أم دبليو الفضية ، وكنا نستعد للدخول هرباً من الرزاز الذى كان قد بدأ ينذر بمطر حقيقى . دخلنا ، وعلى الغداء جلس بجانبى وتعارفنا :

- أنا فلاح من كوبنهاجن ، قال فى صوت سمعه الكل .

- وأنــا صــعيدية من دبلن . وسمع الكل وساد فضول وتوقع وربما سمحوا لأنفسهم بالتكهنات ، ولم يخب ظنهم .

انقلب الربيع خريفاً والخريف ربيعاً وعاودت السنة دورها المعتادة ، وجاء يسأل متفهما :

- ما الذى جعلك تنفين معرفتك بالانجليزية البارحة فى الحفل ؟ لقد أسأت للرجل أيما اساءة . لماذا تهزأين بالناس هكذا ؟ ولماذا قلت لخديجة أن أمك اسمها آمنة ؟ وعندما أراك محمد التقرير الصحى الذى جاء به من سويســرا ، ماذا أضحكك كل هذا الضحك؟ والآن على الغداء . لماذا قلت أنك تشمين رائحة مجار؟ وليست هناك رائحة مجار .

- هى روائح فى أنفى أنا فقط التى تشمها .

ويسقط فى يده . ينظر لى بعينيه الرماديتين المعدنيتين ، وأرى تأرجحه بين الرغبة فى الفهم ، والرغبة فى عدمه . عليه الآن أن يختار . فى النهاية ينحاز لنفسه . أى امتحان مستحيل هذا الذى أفرضه على أحبائى . أصر أن أخرج إلى العالم فى ثياب رثة ، وأعقص شعرى دون أن أجففه ، وأنزل إلى حفـــل مهيـــب ؟ أقص أظافرى ، ولا ألونها ، ولا أضع على وجهى المساحيق؟ وأصر أن على من يحبنى أن ينحاز لى ويأخذ صفى بالذات إذا تعـــالت نبرة استخفاف هنا أو هناك ، حتى لو كان هو نفسه هدف تلك النـــبرة وكان قلبه مستقرها . يصبح لزاماً عليه أن ينسى نفسه ، ويهب مدافعاً عنى أنا ، دائماً . ولو تبدل الحفل واتيكيت الحفل والمراسم تبدلت أنـــا كذلـــك . لـــو قالت بطاقة الدعوة أن على السيدات عدم وضع المســـاحيق ، وارتداء الملابس الرثة وعقص شعورهن إلى الوراء فى عجلة واضحة ، وقص أظافرهن والتخلى عن وضع المساحيق . لو قالت بطاقة الدعوة مثل هذا لذهبت إلى ذلك الحفل بالذات وقد ارتديت أجمل وأغلى ثيـــابى ووضعت المساحيق على وجهى بعناية فائقة ، ولو كانت أظافرى قصـــيرة لأطلـــتها بأظافـــر صناعية ، ووقفت أطلب ممن يحبنى أن يفخر بى مهما نالته أسهم الاستخفاف أو الهزؤ من صناعتى . فأنا كيف يتسنى لى أن أعرف أنك تحبنى أنا ، ولا تحبنى من أجل سواد شعرى ؟ ومع هذا أحـــاول الشـــرح ، وكـــلما حاولت ازداد غموض عينيه ورأيت مؤشر الانحيـــاز يتباعد عنى ويفصل بيننا ونصبح اثنين ، وأعلم أنه انحاز لنفسه ضدى . فأستميت فى الشرح :

- هى قرابين ، أدرأ بها الوحوش فى المحاكمة . لو نفضت عن نفسى كل الصور ولم تعد لى صورة يتعرفون منها علىّ ربما يكفون. لو راوغتهم، ربما تعبوا أو احتاروا ، ربما كفوا عن تعذيبى . كيف يتسنى لك ان تفهم ؟ أنهـــا قـــرابين أدافـــع بها عنك؟ أدفع صورى بديلا . أبواباً خادعة تحيد باللصوص بعيداً عن أبواب الكنز: منازل الروح الحقيقية .

- وماهى تلك يا كيمى ؟

ولمـــا لا يجيئه رد وترتفع الدموع أمام ناظريه تحيله تموجات ، مراوغة يثابر فى طيبة :

- ماذا تقول لك الوحوش فى المحاكمة يا كيمى ؟

- تقـــول انى كاذبـــة وأحيا حياة نرجسية كاذبة ، واذا لم أمح عن نفسى الكذب . تموت أنت .

- أنت تعلمين أن هذا هراء . أنت أذكى من ذلك وأعقل . أنظرى إلى نفســـك . أنظرى إلى الناس الذين يحبونك . أنظرى كيف أفخر بك؟ لماذا تقوضين حياة سعيدة بالخيالات .

- كذب . أى حياة سعيدة . سوف أريك .

أذهب إلى ألبوم الصور صندوق الشرور الصغيرة وافتحه فتتطاير منه شظايا الكلمات وأشير له: فتاة تبتسم للكاميرا ومن ورائها الأكروبوليس ثم إلى امـــرأة رأسها مرفوع بصلف ملتذ والهواء يجرى بشعرها بعيدا عن

الجبهة ، فوق سفينة فى البحر . هناك أخرى يكاد ينشق فكاها من ضحكة لاتدرى لها الآن سبباً . وأخرى تدلى بحديث فى جمع والكل ينصت . شظايا صور أخرى كثيرة أمام برج بيزا المائل ، بجانب الفونتانا دى تريفى فى روما ، صباح يوم أحد أمام قصر باكنجهام ، بحيرة لومان من نافذة البوريفاج فى جنيف ، المدينة القديمة فى أمستردام ، وحقول الدافوديل: حقول النرجس البرى الكاذب . وصورة لآمنة تتطلع إلى الصور فى مجلة قديمة ، وطفلة شقراء من الصعيد ترتدى فستاناً مزركشاً وردياً ، شعرها هايش ، تلوح للكاميرا بكف متسخ ، وعلى رسغها وشم الصليب ، وصورة لسائحين يلتقطان صورة لسائحين يلتقطان صورة وصورة من دبلن فى المطر .

– أرأيت ؟ فهمت الآن ؟ كل هذا ماذا يقول لك؟ أعطنى عقلك ، أعطنى عقلك . قل بماذا تحدثك الصور ؟

– ذكريات لابد أنها كانت جميلة . أوقات خالية من المتاعب والمسئوليات .

– أوقات النرجس .

مددت يدى للصور ومزقتها واحدة واحدة ببطء وهو ينظر ، لم تبق سوى صورة فتاة تلوح للكاميرا بكفٍ متسخ . وكارت الفيزا هديته الأخيرة .

■ ■ ■

يرتفع البغض بيننا حائطاً يصد كل ذكرى حنون ، وتقع أعيننا داخل أعين بعضنا بعضاً ، وأشعر برأسي يتحول حجرا .

ربمـــا جـــاءوا بطـــبيب . ربما سهروا ليالى يترقبون . ربما أيضاً بكوا وواســـى بعضهم بعضاً . لكن المؤكد أننى نمت نوماً طويلاً وعندما أفقت كنت أبكى، وأصر على غسل وجهى من المساحيق ولم تكن به مساحيق .

بجـــانب الســـرير جلست أمى ، وعندما فتحت عينى كانت تبتسم مشجعة :

- سوف أجئ لك بشئ تأكلينه يجب أن تأكلى الآن وتستريحى .

- قتلـــته ، أرأيت ؟ قتلته . لو كنت رأيت عينيه وأنا أمزق كارت الفيـــزا ، لم أدفع القربان ، أنا قربان ، عندما لا أدفعنى . يموت أحدهم . دائماً .

صوتها عاقل ، واضح وبسيط فى تعامله مع الكلام :

- لم تقتـــلى أحداً لم يحدث شئ . أنت متعبة قليلاً ، هذا هو كل ما فى الأمر .

- لو لم أصر على قتل نفسى ما قتلت أحداً تفهمين ؟

- أى جـــرائم يا كيمى ؟ أى قتل ؟ لماذا تصرين على تدمير نفسك هكذا ؟

تتكحل عينا أمي ، وتتلاشى صورها . يحل محل كيانها رائحة برتقال قوية . وأتذكر .

أيـــام طـــوال ذهني فيها سريع التشتت . لا يقوى على المكوث مع فكـــرة واحدة أطول من ثانية . يجرى بي من فكرة إلى فكرة ومن ذكرى إلى أخـــرى فى سرعة البرق ولا أستطيع التركيز مهما حاولت . وأجاهد وتخونني ذاكرتي تحت وطأة أى عاطفة مارة فيدق قلبي فى رأسي وترتجف يداى وتتلاحق أنفاسي وتخور روحي وأكاد أستسلم للنفق المظلم الوحيد. لكنهم ساعتها يظهرون فى رحمتهم ويؤكدون: اذا امتثلت للعقاب تموتين ، واذا لم تمتثـــلي يموت أحباؤك . فى النهاية أمتثل ، أنفض عن نفسي كل تراكمات الصور ، ولا تبقى مني سوى القشرة ما قبل الأخيرة .



منازل الروح

كـــانت بيـــدى بصلة وكان ذلك صباح يوم شم النسيم . وكنت أقشـــرها ، ولمـــا انـــتهيت عرفت أن ذلك هو كل ما هناك وأنهم كانوا يخدعوننا ، ربما بحسن نية . وربما تشبثاً أحمق بأمانى خائبة . لو كان درس الحســـاب يبدأ بتقشير بصلة وعدِّ طبقات القشر التى تتكون منها ، وقيل لنا :

- أنـــتم أيهـــا الأطفال كذلك مثل البصلة ، مهمتكم فى الحياة أن تقشروا ولكن لأن طبيعتكم غير طبيعة البصل ، تستدعى تلك العملية فى حالـــتكم الكـــثير من العنف والألم . تظل كل طبقة من طبقات كيانكم مجـــلوة لامعة تستدعى ناراً حامية لإزالتها عن سطح الطبقة التى تليها . فى نهاية الأمر لا يتبق منكم شئ . وكل المطلوب منكم هو أن تنتبهوا . وكـــلما جاء انتباهكم مبكراً كلما صار وجودكم فى الطبقة التى تحيونها وجـــوداً زاهياً مشرقاً ، قوياً ونشيطاً . وعليكم احتمال نار الكواء التى تصاحب ازالة طبقة لتظهر من تحتها الطبقة الجديدة لوجودكم . هذا هو الجحيم .

أمـــا الصـــراط المســـتقيم فهو الانتباه التام ، وهو على هيئة دوائر متداخلة وليس خطا طويلاً تقعون منه يميناً أو يساراً، أما الجنة فهى العدم، وهى مآل الكل فى النهاية .

هــــل كان يختلف الأمر فى شئ لو أنهم كلفوا أنفسهم مثل ذلك؟ هل كـــان يزول عن العالم كل ما يجعله جديراً بأن يكون عالماً ؟ أم أن حكايا أخرى وأساطير أخرى كانت تحل محل الحكايا التى نتوارثها هنا ؟ هنا فقط لأن قصَـــة البصـــلة تلك بشكل أو آخر تروى لأطفال فى أماكن أخرى بعيدة ، يولدون ويكبرون ويموتون مثلنا تماماً .

تـــرى لـــو كـــانوا حكوا لى حكاية البصلة وقشرها بديلاً عن قصة الصراط المستقيم ، عن أى التدريبات كان سيتفتق الذهن الصغير؟ وهل كنت لاحظت حينها أن الرصيف إلى المدرسة كان بالفعل على هيئة دائرة كـــبيرة لا تكتمل إلا فى مكان غير ملموس فى الوجدان وأنها هناك تفضى إلى دائرة كبيرة أخرى لا يلمس طرفها الدائرة التى تليها مباشرة إلا عند الـــنقطة الـــتى تفضى إلى درجة أعلى وأن الدائرة ربما فى نهاية كل هذا الصـــعود التدريجى انما هى على هيئة حلزون كبير . وإذا كنت اقتنعت بمثل هذا ، هل بالفعل كانت تستدعى تلك القناعة تحولاً فى التدريب على الانتـــباه . وهـــل كانت مثل تلك المعرفة فى وقت مبكر تعفينى من آلام الرأس التى تسببت لى فيها عانس مسكينة ، كل ما كان يذكى احساسها بأهميتها وتفوقها هو قدرتها على حل مسائل الحساب فى مدرسة ابتدائية .

هل كانت حكاية البصله تعفينى من الشعور بالذنب تجاه آمنة ومن بعدها تجـــاه مريم الصغيرة . وهل كانت لاتؤلمنى الكلمات؟ أم أن ألم الكلمات لا مفر منه ؟ ألم الكلمات هو النار التى تحرق سطح القشرة المجلوة لتظهر القشـــرة الـــتى تليها وهى المؤشر والمنبه إلى اقتراب لحظة الصعود التالية إلى الدرجة التالية فى الشكل الحلزونى الكبير . نفس الكلمات فى أوقات مغايـــرة لاتؤثر . هناك اذن عامل آخر يتدخل فى قدرة تأثير الكلمات فى وقت دون آخر . لابد أن نضجا ما ينبع من داخل البصلة يجعل الكلمات تقوم بمهمتها فى التخلص من القشرة التى تكلست حتى تظهر الطبقة التى تـــليها . كيف قاومت هذا القدر طيلة هذا الوقت حتى انى تعاملت مع الكـــلمات عـــلى انها بللورات تتجمع حولى لتصيبنى بالصمم . ما الذى جعل كل تلك القسوة الرهيبة الجميلة ، تفقد جمالها المروع وقدرتها على الخـــلق الـــبديع وتنسج نفسها جرسا عظيما يحمينى من التحول ويعوق قـــانون النضج الطبيعى . ماذا يحدث عندما نصر على الاحتفاظ بالبصل فى الأرض أطـــول ممـــا يجـــب ؟ ولا نعرضه فى الوقت المناسب للشمس والهواء ؟ يعطب البصل ويتعفن . يصبح غير قابل للتقشير . يفقد خاصيته الـــتى جـــبل عليها . وتكون حجتنا دائماً أن الأوان لم يأت ، أو أن هذه البصـــلة أو تلك أضعف من أن تحتمل ، قسوة الشمس ، وعدم اكتراث الهواء . كانت الأصوات قد بدأت يسبقها صداع هائل يعقد نفسه بقوة حـــول الدماغ ، وأنا أحملق فى البصلة التى فى يدى وهى تتقشر وتتقشر حـــتى لم يعـــد مـــنها سوى فص صغير مزدوج لوزى الشكل . لم أتركه

ورحت أقشره عن بعضه والمهمة تصبح أصعب كلما تقلص حجم البصلة فى يدى .

لمـــا انـــتهيت مـــن التقشير نظرت إلى طبقات الجلد الذهبية الفضّية الشـــفافة بـــين يدى وتلخص الأمر كله فى ذهنى . هناك أناس يولدون ويموتـــون هـــذا هو كل شئ . هكذا تبدو الأمور عندما تتلاشى الأوهام أو تتلاشى الحقيقة ، ما الفارق ؟

هكـــذا حـــال الناس؟ هكذا حالى عندما يستبد بى الوجه الآخر من الشـــغف المـــترقب لشئ يحدث . ولما كان شئ يحدث بالفعل لم يكن بى ساعتها شغف أو ترقب . أنا مجمل معرفتى بالعالم لاتتخطى حدود جلدى أنـــا ، غلافى الآن فى هذه اللحظة بالذات . وإلا كنت علمت أن هشام يموت فى ملعب التنس وأنهم فى تلك اللحظة التى كنت أقشر فيها البصلة، ذهبوا لأبيه ليخبروه بالنبأ ، وكان غاضباً وثائراً لأن هشام أخلف موعده، على الغداء وسألهم :

– لا يستطيع المجئ ؟ لماذا ؟ مات ؟

فردوا : نعم .

فى لحظة عشوائية تماماً انضم هشام إلى كل الذين عرفتهم وماتوا قبل عـــامهم الأربعـــين . انـــتحروا أو قتلوا وآباؤهم وأمهاتهم مازالوا أحياء يـــرزقون ، ولايـــبدو لأحد أن ذلك أمراً يدعو إلى الدهشة ويظل الناس

يتعاملون مع الموت على أنه شئ يصيب الناس بعد أن يكونوا قد قُشِّروا عن آخرهم ، ولم يعد هناك احتمال آخر لتجدد غلافهم والمعاودة .

يتســـلل هشـــام بين صفوف الشباب والشابات الذين لم يوفوا دين الجحـــيم كـــاملاً ، لم يقشروا حتى القشرة الأخيرة ، ويتخذ لنفسه حيزاً فى ذهـــنى لايبرحه ، لا لأنه مات قبل أن يُقَشَر عنه غلافه الأخير ، ولكن لأنه عاش هنا وهناك فى مساحات احتلتها نفسى :

- الا تحب جين يا هشُ ؟

- مش عارف ، قال .

- لكنه لا يمضى يوم عليك دون لقياها .

- ربما .

- ربما تحبها ؟

- ربما أدمنتها .

- هى تحبك .

- النساء يقلن ذلك كثيرا .

- أم انك تخاف ؟

- نعم أخاف .

- واذا تزوجت مصرية لا تخاف .

- واذا تزوجت مصرية لا أخاف .

- لم ؟

– أشياء تحكمها ولا تستطيع منها مناص. أبوها وأمها أخوتها والناس.

– وهل تتزوج كل هؤلاء ؟

– نعم أتزوج كل هؤلاء وأريح دماغى .

– ودماغ امرأتك ياهُش ؟

– امرأتى فى الغالب لن يكون لها دماغ .

– وتحب جين ؟

– جين أو غيرها .

– وتخون زوجتك ؟

– أنا لست متزوجاً حتى أخون أو لا أخون ، ما هذا السخف !

حجــــبوا عنى نبأ وفاة هشام ثلاثة أيام . وفى اللحظة التى استوعبت فيها الخبر غشيتنى رائحة بصل نئ قوية نفاذة حتى أن دموعى بدأت تنهمر ووخزتنى مقلتاى وانسد أنفى . وجدتنى أتذكر البصلة التى كنت أقشرها صــباح يوم شم النسيم .. شئ ما يتبقى دائماً .. شئ ما يظل لا يموت ، الروائح ؟



المرة الأخيرة ؟

الأيـــام امـــا بيضاء أو سوداء أما أيام القحط فهى رمادية بلاشغف أو خـــوف وبلا شفقة أو حب . باهتة ، تقضى تحت فعل الأدوية المنظمة للمزاج، مقتولة بيد يأس لا قرار له ولا قاع، يغلفها حزن من تلقى معرفة مـــا قـــبل الأوان ، دونمـــا أمل فى تغيير أى شئ . يأس من كل رحمة ، يصـــاحبه صمم عميق يلف الجمجمة من الداخل ما بين الجلد والعظم . صـــمم يغـــلف حـــتى اللسان . وكأن الجلد والعظم واللسان لرأس من الحجـــر . اخـــتيار اللامبالاة . اختيار اليتم والبنات الصغيرات اللواتى لم يسمعن أمهاتهن يقلن : أنا اللى يمس شعرة من راس بنتى أكله .

الحياة أمامى مشاهد تبدأ وتنتهى وأنا ذهنى فى مكان آخر . فى الربيع والخـــريف وليس بهذا الانتظام المطمئن . يذهب رأسى إلى حيث لايبالى ، ولا يســـتجيب . وتســـــتوى كل الأمور . أعود أو لا أعود . أستعيد احساسى بدماغى أو لا أستعيده . وتفقد الأمور والأشياء صلاتها وتنتفى المعـــانى . المسمار الصغير الذى كان يجعل من المقص سلاحاً تلتقى عنده الكـــلمات وحـــين تنزل الشفرات بين الجمل التى تتكون منها الكلمات تنبـــثق المعـــانى وتنتشى الحياة مزهوة بنفسها ، يسقط . ترتخى مفارقات

الوجـــود ، تطالها رطوبة ما ، وتفتقد الكلمات الخشونة التى تقاوم رثاثة الـتكرار وتميعه . تشيخ الحياة ولاتعود تنتشى . وتملأ الصحف والكتب والاذاعـــات المراثى على الشعراء الذين كانوا يملأون جنباتها والشوارع بصــخب غنائهم الحر الطليق ، يخلقون المعانى من أوراق قلوبهم ، هؤلاء أيضاً قتلوا أو انتحروا ، أو أكلهم السرطان البطئ . ومَنْ بقى لايعتدُّ به ، الكلُّ يتشكك في جدوى الكلام .

يجيــئني يونيــو بذكرى انعدام الجدوى ويتسربل العالم بالحداد الذى لم يمحـــه مئة فرح فى بيتنا وبيوت الجيران . كل العطور "العربية" لاتمحو رائحة ذلك الدم . يصطفون أمام طائراتهم ومن خلفهم شاشات الذاكرة. هـــم فى طـــريقهم إلى المعركة التى كانت سوف تنهى كل المعارك ونأمل عـــندما يعودون ، ولم يكن بنا شك أنهم سوف يعودون ، مجروحين ربما ، فقـــدوا زمـــلاء ماتوا ربما ، ولكنهم ، هم بالذات أبناؤنا وأحبابنا سوف يعـــودون . فلما لا يعودوا نتخلص سريعاً من رائحة أجسادهم . رائحة الـــبارود والـــدم ، رائحة العرق فى طابور الجمعية الطويل ، رائحة زيت الـــتموين ، ورائحـــة تذكـــرة السينما تحمل رسوماً كنا ندفعها راضين: لـــلمجهود الحربى . ونفتح أجهزة التليفزيون . آمنة أمام الشاشة تبكى ، وأنا أعلم أنها لاتبكى مصير مصرى الذى كان يحارب أعداء بلاده ، وانما تبكى لأنه عندما دفع حياته كان ذلك فداء لحياة ابن العمده . صار موته جريمة عاديه من الممكن أن تتكرر بلا معنى فى أى يوم .

انظر إلى وجه آمنه وأعلم أنها تتذكر أشياء لا أعلمها ، ولكنها تبكى مثـــلى انعدام جدوى البطولة . شعور تغلفه فى نبرة الاعتياد وهى تمسح وجهها بكلتا يديها من الدمع :

– عينى عليك يا ابنى .

كـــنت أظـــن أنى وحدى التى مت بينهم بعد أن شرخ دماغى بللور ترابيزة السفرة ، وأنى وحدى استسلمت لسيور البللور الذى نسج جرساً عظـــيماً غـــلف وجودى حتى لاتوخزنى الكلمات . وأنى وحدى صرت صـــماء بكماء ، يحادثوننى عندما يحادثوننى كمن يسكن جسداً صحيحاً لكنه غير مسموح له بالحـــركة ويظل أحـــدهم أو كثيرون يجبرونه على مشاهدة ما يدور فى الدنيا من حوله اجباراً . استدير لآمنه .

أسألها :

– بتبكى ليه ؟

– أبداً يا كيمى ، أصلى افتكرت أخويا .

– هو أخوكى مات فى الحرب يا آمنة ؟

– لا أبداً ، ربنا يديه طولة العمر !

أنا وهى فقط طيلة أشهر الصيف وبيننا التليفزيون . ولا شئ يحدث .

فى ســـبتمبر يعـــرض التليفزيون فيلم ساحر أوز فيوقظ حزناً ما فى الذاكرة ، وتلين العيون ويفتح اللسان الطريق للرئتين والضحك . تقف

جودى جارلاند على آخر الطريق الحجرى الأصفر ، وتخبط كعبى حذائها الأحمر الماسى وتقول فى توق حقيقى:

- There's no place like home, there's no place like home

تنظر لى آمنة مُبتَسِمة مشجعة وقد رأت فى عينى انتباها غاب شهوراً، ثم تـــترك غـــرفة الجلوس إلى المطبخ . ترجع ومعها صينية عليها أشياء . رائحة التوست الساخن تسبقها . على الصينية ، جبن أبيض ، وزيتون ، وخيار وزبدة ومربى اللارنج وبَراد شاى .

واباغتها : مش عاجبك الفيلم ؟

- شفته ميت مرة قبل كده .

- اشمعنى ده اللى زهقتى منه؟ ما انت بتشوفى كل الأفلام ميت مرة وما بتزهقيش .

تلحظ شيئا على وجهى فتجىء حيث أجلس على الكنبة وتمسح على خدى . وتسأل :

- مالك ياحبيبتى ؟ كنت بتضحكى من دقيقة بس .

- عايزة أروح ، يا آمنة ، زهقت .

تبســـمل وتحوقل وتستعيذ بالله من الشيطان . تضع يدها فوق رأسى وتـــبدأ فى قراءة السبع آيات المنجيات فى صوت خفيض جداً لايسمع . ولما تنتهى تجذبنى إلى صدرها الكبير وتظل تمسح على شعرى :

- انت فى بيتك يا كيمى ، هنا بيتك وانت دلوقت وسط أهلك وناسك .

- انت ليه ريحتك برتقال ؟

- كنت باعصر برتقال .

رائحة البرتقال تغشانى . وأعرف أن الشتاء اقترب وأتذكر الهمة والنشاط، وفوط اليد الشاهقة البيضاء، وأمى . أمى هى رائحة البرتقال . كيف استحوزت آمنة على رائحة أمى ؟

- مش حاطه كولونيا ليه ؟

- حطيت الصبح لازم طارت .

- طارت فين يا آمنة هى الكولونيا بتطير ؟

تستعيذ بالله مرة أخرى وتربت على شعرى .

- أنا عارفه يا ربى كان مستخبلنا فين ده '

وأفزعها : كان مستخبى فى البالوعة ، لو دخلت الحمام دلوقتى حتلاقيه بيئن من الألم وانت السبب . فاكرة؟ انت اللى قلتلهم يحطوله ازاز مدقوق فى البالوعة ! انت اللى موتى الملك الأطلسى ! وأضحك .

وتشتبك معى فى التو حتى لا تضيع فرصة اللعب أخيراً بعد أشهر الصمت الطويلة :

- الملك الأطلسى ما ماتش .

- مات يا آمنة ، مات اعترف ولو مرة واحدة انك كنت بتألفى بقية الحكاية عشان تنتهى نهاية سعيدة وأن الملك فى الحكاية الأصلية مات .

تصـــمت فجأةولا يطرف لها جفن ، ولا يبين على محياها أى تعبير . تصير كتلة من الحجر . وأفزع . لقد نظرت فى عينيها . كان على فى مثل تـــلك الأحوال عندما يكذبون ألا أنظر فى عيونهم وإلا تحولوا إلى حجر . ولما أصرخ فيها استجديها الا تتحول هكذا تكون قد ولت عنى .

بعـــد نوم طويل أصحوا ويبدأ الغضب فى الاستيلاء على كيانى . هى مثلهم جميعاً ، لا تفهم . هى كذلك نشيطة ، ولها روح قوية تصارع من أجل البقاء . صوتها قوى ، حركاتها قوية ، تنبع من ايمان ولابد أن الحياة مهمـــا كانت تستحق أن نحياها . كاذبة مثلهم جميعاً . أنا لا أرى للحياة أى مـــبرر ، ولا أريـــد لوجودى أى تأثير ، وليست بى رغبة فى أى شئ سوى أن يحل عنى عرض الحياة هذا .

ثم يـــبدأ الـــبكاء . تـــروى الدموع الروح الهامدة ، ويغويها الحزن المستعاد ، يسرى لها بالمستحيل: فى امكانك اللحاق بالمستحيل ، ضرب الحائط بما يسميه مهندسو المواد "الأنتروبى" . يقولون أن كل حركة قدم مهمـــا ضعفت تمضى بكل ذرات الحياة المتماسكة إلى درجة أعلى فأعلى مـــن الفوضى . بعد الارتواء ، يحل محل الدمع اصرار وعند ، لبدء رحلة فى عكـــس الزمن ، لكنها أبطأ مما مر منه ضعفين . يكاد الخاطر يقعدنى ، لكنى أقاوم ، لا يمكن أن يموت المرء هكذا دون أن يحصل على معنى ما .

فى كـــل الأحوال ، المعنى صعب المنال فما بالنا لو أن المرء بدأ حياته وقد توافرت كل الأشياء بسخاء غدا وبعد غد وبعد بعد غد ، و إلى الأبد لك بيت وأهل ، ولن تعوزى شيئاً ، كما أنك لست مطالبة ببذل أى مجهود عـــلى الاطـــلاق ، وإذا عنَّ لك بذل الجهد فربما كان ذلك أمراً جيداً . وأعـــلم أن الكثير من الجهود التى يجود بها أمثالى لاتؤثر فى شئ ولاتبدل من شئ ، لكنى أقاوم . فى امكانك الاتيان بمعنى ما ، وان كنت لاتخافين فقد الأشياء ، تعلمى أن تخافى فقد الخوف ذاته . هذا هو محررك الوحيد ، وعلى عكس كل ما يدعون . إذا كنت لاتخافين رأى الناس فيك ، خافى. خـــافى . واذا كنت مت قبل أن تموتى ، وأفقدك الموت أحبابا وأصدقاء بغتة ، وتهيأ لك أنك تصالحت مع الموت: خافى الآن . خافى . هذا أملك الوحيد فى الاتيان بالمعنى .



الشــك

الشــكُ عتبة الخوف ، الخوف من الممكن تثقيفه حتى يصبح ازميلا يــنحت به الوجود . وجود صاحبه . أعلى أحصنته الموت . كل خوف قــبل ذلك نسبى . كل قياس مع الفارق . ولكن اذا زاد الموت عن حد الاحتمال فى الخيال ؟ وصار فى يد أي من كان أن يميتك نزفاً بالكلمات ، هل يترك لك ذلك مساحة للخوف الذى ينحت به الوجود ؟ كل خوف هو خوف فى الخيال يغذيه العقل الواعى من الذاكرة . هناك حيث تخزن الملامح التاريخية لكيان زئبقى لا يرسو على حال : أنا ، نحن . من أنا تلك ومــن نحــن ؟ ولــو ذهبت إلى ذلك المخزن العجيب حيث كل لحظات التاريخ محفوظة فى صور دامغة ، من يدرينى أن عين الكاميرا ويد المصور لم تتعمدا تشويه هنا أو تحسين هناك . أذهب إلى ألبومات الصور أتفحصها لعــلنى أجد الاجابات . مم كنت أخاف؟ أى "البوزات" كنت أتخذ وأنا أعلم أن الكاميرا سوف تحتفظ لى بها محنطة فى صورة نهائية ؟ أى تعبيرات كــنت أرسم على وجهى اذاك ؟ وعندما كانت تغافلنى الكاميرا ، ماذا كانت تلتقط؟ واذا فرغت إلى نتيجة بعد هذا البحث هل أكون وصلت إلى حقيقــة هــذا الكيان المتحول أبدا فى الزمن ، كل طرفة عين ، كيف

يمسك المرء بمثل هذا ؟ كيف يستطيع القول : كانت الأمور على هذا النحو ، وكنت أنا هكذا : لا أخاف سوى أن أفقد الخوف ، وكان الخوف وحده هو الذى يأتينى بالمعنى ، وكان الخوف من الكلام وضياع اللحظات المسحورة على كل ألمها .

العالم قنينة من الشك والسحر نوعان: أبيض وأسود . أيام السحر البيضاء تبدأ بحزن شفيف ومحبة طاغية تشمل كل شئ، وتتعاطف مع كل ألم . التعاطف كلمة منقوصة هنا . الأقرب أنها أيام يتعاطف فيها الكيان المدرك للوجود مع ذاته حتى يتبدى له أنه هو الوجود ، وخوف عظيم وشفقة أعظم على تلك اللحظة السريعة الخاطفة التى لا تدوم . شئ مثل هذا يحدث لمن يدعون أنهم فهموا لغة الطير والوحوش ؟ فى السيارة على طريق القاهرة - الأسكندرية الصحراوى أدير مؤشر الراديو على محطة البى بى سى . وأسمعهم يقيمون قداسا على روح القديس فرانسيس الأسيزى . تتجمع طيور فى السماء ، تكوّن سربا متناغما وقائدها يتراقص بها على الموسيقى المنبعثة من الكاتدرائية البعيدة. شئ يتسق تماما مع اللحظة وادراكى لها ، أصبح أنا والطيور والسماء والطريق والموسيقى كياناً واحداً . ولما أعود إلى بيتى ، ألمح البورتريه الذى رسمه لى فنان قدير في جانب مترو من حجرة الجلوس أنظر إلى وجهى فى اللوحة الزيتية وأرانى أغمز لنفسى وأبتسم !

فى الأيام السوداء تكون قوى الشر متملكة من العالم تماماً وتكون كل التفسيرات هازئة ، متعالية على أغراض السحر الطيب ، نصفها بأنها

أغـــراض دنيـــئة لا يصـــح للأذكيـــاء الاعتداد بها أو حتى ملاحظتها . وإن لاحظوها يصبح حتمياً عليهم أن يفسروها تفسيرات تليق بالأذكياء:

- شعور ذاتي محض ، قال الطبيب ، عندما وصفت له الطيور وهي تتراقص على موسيقى القديس . القـــديس كان له وجه آخر . كان فظاً ولا يعـــتد بالـــنظافة الشخصية . أما حكاية الصورة التي تبتسم وتغمز تـــلك ... وراح يضـــحك وهو يربِّت على كتفيَّ في حنو أبوى : كنت تقـــرأين " عـــالم صوفى ؟ " ثم نظر إلى ساعته وكان ذلك مؤشراً بانتهاء المقابلة .

في الأيام السوداء تكون التفسيرات الذكية في علو وسيادة ، تؤازرها قـــوى العقلانيـــة والتفكير السليم . المقدمات تصفيً من كل افتراضات الصـــدق ، والطيـــبة أو المحـــبة . تفقد الظواهر علاقاتها ، تصبح قوائم معـــلومات بلا معنى . الطيور تطير لأن من طبيعتها أن تطير ، واللوحات تبتســـم وتغمـــز فقط لمن تخدعهم حواسهم . الأصدقاء يسألون لأن لهم غرضـــاً ومصـــلحة ، ان لم تتـــبدى في تلك المكالمة بالذات فذلك لأنهم ماكرون ويعلمون متى يطلبون . التوقيت الجيد هو سر النجاح في الحياة ومع البشـــر . التوقيت لا علاقـــة له بلحظة سحرية يتوافق فيها المكان والـــزمان من خلال ذات أخلصت في قسوتها على نفسها من أجل لضم اللحظات الحقيقية المجنونة . أملاً في الفوز بالمعنى :

- ليـــه بتســـمحى للناس يستغلوكى كده يا كيمى وبعدين تزعلى منهم؟ قالت أمها الحصيفة ، الواعية .

– ماحدش بيستغلنى ، أنا أعطيهم بملء ارادتى ، ومابزعلش .

– يعتبروك ضعيفة ، ياخدوا منك اللى هما عايزينه ولما تدورى على حد يساعدك ماتلاقيش .

– كل واحد بيدى اللى يقدر عليه .

– الا أنت بتقدرى على كل حاجة ، مش كده ؟

دون تلك اللحظات كانت الأيام رمادية لا تستحق أن يحياها المرء . وعلى الرغم من الألم والتصورات المشوشة المخلولة ، وكل الاتهامات باطلة وغير باطلة فى محاكمة الذات ، وكل الأحكام التى تحكمها الذات على نفسها وتقتص: موتى يا أنا ، كاذبة أنت ، منافقة ، متعاظمة ، مغرورة ، خائنة ، مهملة ، غبية ، قبيحة ، ساذجة ، شريرة ، مستهترة ، لا تحسنين عملا ، نرجسية ، لا تحركك آلام الآخرين ، لا تمدى يد العون، سفيهة ، هازئة ، لا رجا منك ولا غفران لك . وحدك السبب فى كل شرور العالم وبلاويه ، وحدك مسئولة ، وأيضاً تخافين ، جبانة لا تقوين .

صور كثيرة التقطها ، اناس كثيرون أعطوها تلك المعالم وحنطوها فى ألبوماتهم على صفحة النيل ، أمام الأهرامات ، حديقة منزل جدتى ، أمى تسقى الزرع فى بلكون بيتنا ، أبى يصافح الرئيس ، أبى بين نهرو ونكروما . اللاذقية وبلجراد وبودابست شاطئ المنتزة فى صيف ٦٧ ...

وترتفع الأصوات فى دماغى تدين: خذلتيهم. وأدافع : هم أيضاً خذلونى. من ذا الذى يعترف لنفسه أن له طفلاً ليس كبقية الأطفال، يسمع أصواتاً ويخـاف ألا يخاف . الشك يحرق كل صور المحبه . يعرض الأفلام فجأة لضـوء الـنهار الجارف ويحيل مرايا العيون أحجاراً ويرادف بين البشر والخديعـه ويعلمنا الا نصدق أحد . نصبح أذكياء ونهزأ . "تفتكرى كل حاجه .. مش كده ؟! انت .. "



درس القراءة

الأســتاذ شــهير . يجلس على منصة عالية . ينظر لى نظرة متفحصة ويقولِ : رحم الله امرءاً عرف قدر نفسه ، أجزم أنه يوجه حديثه إلى .. قدر نفسى ؟ أنا لا أعرف قدر نفسى؟ قدرضئيل جدا ويتضاءل . كدت أنجــح . كــدت أصل ، كدت أقَشَّر وتسقط القشرة الأخيرة . بعدها لايرانى أحد ، ولا يصبح فى وسع أحد أن يوخزنى بالكلمات ، بعدها لن أكــون . مــن ذا الــذى يسألنى عن قدر نفسى؟ بعدها تتحقق رغبات الصــادقين الصارمين العادلين الواثقين ، أمحى من مرايا العيون ولا يضطر أحــد أن يعترف متحدياً خجله: "نعم هذا الهجينِ من صلبى ، وأورثه" . بعدهــا لن تعاد كرة ، ولن أتمرد ، ولن أصر على الوجود ، وأعود أندم فــأعود أغزل فى الليل ما نسلته فى النهار ، ويكف اللعب . تلك الفتاة ماذا ألمّ بها حتى تلاشت سوف يتساءلون ، يدرأون الذنب ويتساءلون :

- ماذا ألمّ بك . كيف أصبحت هكذا بلا خوف من ألا تكونى ؟ بل ما هذا الاصرار على ألا تكونى ؟

- كنت أود أن أكون .. أحيا نفسى ، أن أجربها .

- وهكــذا لا تحققــى شيئاً أبداً . لا تصلى إلى نتائج .لا تستندى إلى شــئ ملموس فى الواقع . نفسك تلك شئ تصنعينه فى كل خطوة . تنحتينه ، تقتنصينه اذا اقتضى الأمر ، من الطبيعة ، من حولك .

- نعم فهمت مثل هذا منذ البداية .

- أيــة بداية تلك ، لقد فاقت بداياتك العد والاحصاء . وبعد كل بدايــة تصــبحين مثل طفل فاسد ، لايطيق اللعبة نفسها أكثر من نصف يوم .

- حدث . كنت أتوق لشئ ليس له كنه ، ولا أدرى كيف أعرفه . العــالم بأسره ربما . إما العالم بأسره وإما لا . كيف يتوق انسان أن يكون الوجود ذاته ؟

- يتوق الناس إلى كثير من المستحيلات .

- نعم ولهذا كنت أتدرب . كنت أدرب نفسى . وهذا هو ما أعاقنى كل ذلك الوقت .

- التدريب لا يرفع الحدود . خلطت بين الأمور . التدريب من أجل الامــتياز داخل الحدود . الكل يعلم أن لهم حدوداً لايستطيعون تخطيها مهما حاولوا ، الا ..

- الا المجانين ؟

- الا المجانين .

والسحرة بالطبع ، وكتاب القصص والروايات .

- السحرة مجانين يا جران ماما؟

- السحرة والشعرا وكتاب القصص والروايات وعلماء الكيميا .

- والعاقلين ياجران ماما؟

- البنات المؤدبات اللى بيسمعوا الكلام ومابيكلموش الدياب فى الغابة .

- وانت ، مال مناخيرك كبيرة كده ياجران ماما؟

- أمشى يا بنت يا قليلة التربية .

كان من المفترض أن تقول: "من العيا يابنتى" بعدها أسألها: ومال عينيك حمرا كده يا جران ماما فترد: "من العيا يا بنتى" وهكذا حتى تهم على شابورون روج تأكلها ، وتعرف شابورون روج أن جدتها ليست جدتها وأن الذئب أكل جدتها وتخفّى فى ملابسها ، حتى يستطيع أن يأكلها هى الأخرى ، فقد كانت جدتها تحب الحكايات وتعتقد بينها وبين نفسها أن مطبخها معملا للكيمياء ينتج معادلات توفر الصحة وتلم شمل الأبناء.

★ ★ ★

لما قالت ماقالت تذكرت يومها أنى سمعت مثل هذا من قبل كثيراً لكنى ساعتها فهمت أن العالم منقسم إلى قسمين · العاقلين الذين يعادون السحرة ، والسحرة الذين يحاربون العاقلين بالكلام وان المعركة قائمة كل يوم ، وان الأيام لأن بها سحرة ، فهى كلها مسحورة ، وأن هناك

أياماً مسحورة سحراً أبيض وأخرى مسحورة سحراً أسود ، وأن السحر الأبيض هو الفراغات التى تتركها الكلمات بين السطور ، وأن السحر الأسود هو السطور التى تصنعها الكلمات ، وأن الأيام السوداء هى تلك التى ينجح فيها العاقلون الأشرار فى منع السحرة من ملء الصفحات البيضاء ، وأن جدتى عاقلة ، فأمضيت الليلة أعيد صناعة الصغيرة ذات الرداء الأحمر ، وألبستها ملابس سوداء لأنى لم أكن أحب اللون الأحمر ، ولأن جدتى كانت قد ماتت :

" ذات الرداء الأسود كانت تعيش في كوخ على ضفاف نهر عظيم ، كوخ نظيف ومرتب ومعتنى به تماماً وله حديقة بديعه . وكانت جدتها تحيا فى كوخ مثيل على تخوم الصحراء ومع هذا لم تكن المسافة بين الكوخين كبيرة ذلك لأن الصحراء كانت على مقربة غريبة من وادى النهر . وكان لتلك العائلة سر تحفظه الامهات ولا تدلى به الا للبنات . ولما كان يمضى جيل دون ولادة ابنة كان يعم نساء العائلة خوف فظيع على السر أن يموت معهن قبل أن يستطعن نقله إلى ابنة أخرى جديدة . ولما كانت ذات الرداء الأسود قد بلغت السن التى كان من الممكن نقل هذا السرِّ إليها ، استدعتها أمها وأخبرتها أنها سوف تبعث بها إلى جدتها على تخوم الصحراء القريبة فى مهمة خاصة جدا . ولم تسأل ذات الرداء الأسود كما يسأل الأطفال . وانما راحت تستعد فى التو للرحيل .

أرَّق ذلك أمها فسألتها :

- ألا تودين معرفة طبيعة تلك المهمة الخاصة ؟

وردت الابنة :

- يكفى أنها خاصة ، وانك اختصتينى بها .

- هى خاصة وان كنت أوكلك بها فليس ذلك لأنك تتميزين . فهمت ؟

أحبط ذلك ذات الرداء الأسود فقد كانت بالفعل تظن أن ذهابها إلى حيث الجدة فى مهمة قالت أمها أنها خاصة يعنى أنها هى أىضاً خاصة وأن ذلك بالفعل يميزها . وامتثلت للردع وسكتت تستمع إلى بقية كلام أمها .

- سوف أحملك أشياء إلى جدتك ، فى الطريق لا تحادثى أحداً ، ولا تردى على تحية أحد ولا تتوقفى لأى سبب كان . وبعد أن تعطى جدتك الأشياء التى معك ، لاتمكثى وارجعى فى الحال ولاتتوقفى فى طريق العودة كذلك لأى سبب كان . وعندما وصلت ذات الرداء الأسود إلى منزل جدتها وقد استمعت إلى نصائح أمها بالحرف ، وجدت الباب مفتوحاً على مصراعيه ، تسمرت قدماها وشعرت أنها لو ولجت تحدث لها أشياء لا تدرى عنها شيئاً . ولكنها دخلت وكأنها مسحورة ، وبالفعل شمل كيانها شعور بأنها تركت وراءها عالماً ودخلت إلى عالم جديد ، فقالت لنفسها :

- هذا هو الموت اذن ؟

وهنا سمعت صوت جدتها يأتيها من المطبخ :

- أهلاً أهلاً ، وصلتى بالسلامة يا حبيبتى :

وتذكرت ، أمها قالت وهى تودعها :

- سـحر الكـلام فى النـبرة . كل الموسيقى فى النبرة . والخديعة كذلك .



السرينات

تتلون الأصوات كما يتموج الكلام بالسطور ويحيلها نغمات تغوى بالموت :

هيميروبا ، تلكسيبيا ، أجلاوفينى ، بزينويا ، ومولبا :

السرينات يهمسن متضرعات: "وحدك أنت تقدرين ، وحدك دون كل البشر ، وحدك تستطيعين انقاذى ، مساعدتى .. انت فقط .. وحدك" .

الكلام يغزل من بعضه وينتقل وينتشر ، والصور كذلك . اللحظة وشك الاستسلام . اغواؤها أقوى من كل أغنيات السرينات . فى كل اللغات هن وثيقات الصلة بالماء ، وصلات الماء فى مخيلة الرجال . وحتى عندما يخرجن من الحقول كما يخرجن فى مصر وأيرلندة يكون حقلاً غمرته مياه السقيا ، أو بالقرب من جدول أو بحيرة . ويحبونهم حتى الموت: موت الرجال . تخرج النداهة من الماء شعرها الطويل مبلل يلتصق هنا وهناك بأكتافها العارية ويصل حتى ردفيها . ملابسها تشف عن جمال ساحر أخاذ . ترفع يديها تدعو العابر فى صوت لايقاوم . هذا سرها .

ســـرها فى صـــوتها . يخلع الرجل ملابسه وينزل وراءها إلى الماء وقبل أن يصـــل إليهـــا تكون قد تحولت إلى بومة عظيمة تطلق ضحكات مدوية فى الهواء الساكن فوق البحيرة ويغرق الرجل .

الســـرينه الدانيماركية تختلف عن أخواتها الأخريات بدءاً من اللواتى يســـكن بحـــر إيجه وحتى ساكنات الحقول التى يسحرها غياب الشمس فى قـــرى مصـــر . الدانـــيماركية أفقدها رجل صوتها أو هى تخلت ملء ارادتهـــا عن صوتها حتى يهبها ملك البحار قدمين تدخل بهما عربة بى أم دبـــليو سماويـــه مفضضة وتجلس إلى جانب أميرها الوسيم تحيى الشعب مبتســـمة ملوِّحة من وراء زجاج السيارة دون أن تستطيع النبس بكلمة واحدة .

وحدهـــا تـــلك الـــتى تسكن وارسو ، ناحية نهر فستيولا ، لاتغوى أحد بغناء يسلب الروح ، ولاتهزأ ، ولا تتخلى عن أسلحتها : السيف فى يـــد والـــدرع فى الأخرى تسهر وتترقب واذا حل الأعداء ببلادها التى تمـــزقت كـــثيراً تهب محاربة ، وعندما تحارب تعلو الموسيقىَ وتنشد بقية السرينات :

"تاب ، تاب ، تاب ، كوكاراكاررا ، لالاباى ، خطيئتى ، ... جمال الموسيقى يجب أن يسرقك مرتين" .

من ذاكرة الحائط وقف جيمس جويس فوق سريرى في دبلن . يضع يديه فى جيب بنطلونه الواسع وينظر إلي نظرة كلها طيبة ومحبة ، ثم ينظر مثلى فى اتجاه يافطة كتب عليها :

"سكوت : بروفة جنرال : سرينات جيمس جويس" .

من وراء اليافطة ظهر رجل طويل ، شعره الأسود يكاد يلمس كتفيه وتــلمع فيــه شعيرات فضية هنا وهناك ، شفتاه مثل شفاه ملائكة عصر النهضــة ، ويرتدى نظارة خفيفة اطارها فى سمك سلك ذهبي . لما يبتسم تبتسم عيناه البنيتان فى طيبة ذكية . عندما وصل حيث كنت أقف بجانب اليافطة بادرته؛ كما لم أبادره أبداً :

- لو سمحت هلاّ أخبرتنى . . من أى الأمصار أنت ؟

فرد فى بساطة أسرتنى :

- أيرلندة . ولدت هنا . أيرلندة .

ثم عقب بعد لحظة كان يتجنب فيها دراجة كادت تهرس قدمه :

- وأنت ؟

كانت الأصوات أعلى من عادتها . أصمَتنى فلم أرد :

- ربنا انصرنا على أنفسنا لو كنا لها ظالمين .

- رحم الله امرءاً عرف قدر نفسه

- أهلا أهلا وصلتى بالسلامة يا حبيبتى :

عـــرفت أخـــيراً أننا كلنا نولد هكذا . وأن حيرتك كانت مشروعة تمامـــاً . كيـــف يعرف المرء إلى أى عائلة من السرينات ينتمى إذا كانوا حكوا له كل تلك الحكايا ثم حرموه الكتابة؟ كيف يعرف إلى أى اللغات ينـــتمى إذا قـــالوا : أقرأ فى كل اللغات ولم يقولوا : أكتب . طبيعى أن تصـــبح لغاته قواميس . وإذا صارت لغاته قواميس طبيعى أن يكفر بكل الـــلغات وإذا كفر يتعصب ويضيق الأفق حماية من التلاشى والتماهى ، ولايتشكك؟ كلنا نصنع لأنفسنا أجراساً تحمينا ونقبع تحتها إلى حين حتى نـــبدأ فى الاختـــناق فنكســـر الجـــرس ، لو كنا محظوظين نلقى من نحبه ويســـاعدنا فتنســـل السيور فى سلاسة لا نلحظها إلا بعد أن نلحظ أننا نتنفس دون حرص أو قلق ؟

- كان جيمس جويس مازال على وقفته أمام يافطة السرينات . وكان يقول مبتسماً :

- أنت تهذين .

لكنى تجاهلت ماقال وسألته :

- عـــندما كـــنت تصنع موللى بلوم؟ هل كنت تعلم أن فى روسيا ســـرينات ينتمين إلى الثلج؟ يخرجن من وراء تلال الثلج وإذا نظر اليهن الرجال يتحولون إلى حجر؟ وإذا نظروا هن إلى الرجال يتحولن إلى ماء ؟

ورد :

– موللى كانت اغريقية ، والاغريقية أم الدنيا .

كـــدت أصححه ، ولكن أمى دخلت وانقطع الحديث ، ولم تلحظه واقفا ويداه مازالتا فى جيب بنطلونه .

– هيا دعك من البحلقة فى السقف هكذا قومى معى . لقد أعددت لك إفطاراً شهياً .

آمنة مريضة منذ أسبوع . هى أيضاً تود الاطمئنان عليك . اذهبى لها فى حجـــرتها . هى لاتقوى على القيام من السرير . أخرجى من نفسك لحظة . أريها كم تحبينها وأنك تهتمين .

أنـــا أتمارض إذن . أود جذب انتباههم . إلي ماذا بالضبط؟ كل تلك الأعـــراض . بك كل الأعراض . يحدث . لا تخافى . هيا سوف أصحبك إلى بيـــتك . أقصــــد إلى أمتك . هجين زائف . قل لى بالله عليك فى أى الأمصـــار نحـــن؟ بـــارِاليل ، باراليل . رائحة البرتقال والبنات اللواتى حرموهن الكتابة فى بر مصر . خافى . شكى . واعلمى انك فى نهاية الأمر لا تســـاوين بصـــلة . استمعى إلى النصيحة وامتثلى للعقاب . سيارات سماوية مفضضة . العقلاء أقوياء . أقوى من كل السحرة مجتمعين .

– لا يا آمنة أنا ، لست مريضه فقط تحدث لى أشياء بفعل الكلام ، أشـــك ، وأوقن وأتأرجح هكذا بين طيبة المعانى وخبثها . يوخزنى سحر النـــبرات ولا أســـتطيع لها رداً ، يتموج الكلام على الصفحات ويتخذ لنفســـه معـــانى تتناقض مع نفسها بين لحظة وأخرى . تارة تبدو محملة ،

حبلى ، تكاد تفيض بالخير العميم على كل البشر وفى اللحظة التى تليها يـــنفّض السحر ويسود العقلاء الأشرار . مثل الموسيقى فى الأصوات . تفهمين ؟

- زى وشك فى المراية ؟

- بالضبط ، كيف عرفتى ؟

طول عمرك ما وراكيش غير البص فى المرايات .

التفتُ فالتقطتُ وجهى فى المرآة فوق التسريحة . مياه المرآة متعرجة ، تـــتماوج ، تتطـــلع إلىّ ، تراوغنى كالزئبق أراها ولا أراها ، أستمسك بمظاهر وجودها ، كأنها قدت من ماء . وتنسرب من عينى شعاعًا رقراقًا كـــانت تســـحه بصيرتها القاسية ، فأسترجع صدى توسلاتها المسحورة ، وتحول نبراتها وهى تدعونى :

- أنت فقط ، وحدك ، تستطيعين .. أنت دون الناس جميعًا .. أنت فقط .. تخلصيني .. تخلصيننا .



الأثـــر

المحو وإعادة الكتابة على نفس الرقعة .

أكـــتب وأمحو وأكتب . ماذا لو قرأ أحدهم هذه الأوراق قبل أن .. تكـــتمل ؟ الكتابة أبدًا لا تكتمل ومع هذا يقرأها الناس ! كيف يكتمل الشـــىء إلا إذا مات ؟ هذه بديهية . كل شىء مادام حيًا ، لا بد أنه فى طـــور مـــا . فقط عندما نموت نكتمل . أو عندما يميتوننا فى الكلمات . أحباؤنا الذين يصرون على الاحتفاظ بصورنا هكذا أو على هذه الشاكلة أو تـــلك . أو عندما نميت أنفسنا فيحلو لنا أن ندعى أننا كنا على هذه الشاكلة أو تلك ، أو ما زلنا . لأن هناك شيئًايغوى فى النهايات . إغواء أن نضع نقطة النهاية بأيدينا ، نميت أنفسنا بأنفسنا .. نختار العدم بديلاً . العـــدم أرحـــم . ذلك الآخر يتطلب ألا ننتهى أبدًا .. أبدًا .. أن نمحو ونعاود الكتابة والحياة من جديد ، ربما .



تمـــت

أوراق النرجس

هناك خيط في الرواية يكتنف مشاهدها المتفرقة ويوحّد نصها المتشظي ويقدم رسالة كيمي المتدفقة عبر عصف ذاكرتها ألا وهو الدور الخلاق للكتابة والإبداع والأدب في تشكيل الذات وتجديدها على مستوى الفرد والجماعة . تطرح رواية سمية رمضان أسئلة أكثر مما تطرح حلولاً ، لكن هذه الأسئلة ذاتها مؤشر إلى أهمية إعادة تكوين أنفسنا ومقاومة التحجر والتصحر . وفي هذا تتقاطع سمية رمضان مع أديبنا الكبير نجيب محفوظ الذي قدّم لنا مرآة مهيبة تعكس واقعنا المركب ، لا لغرض التحديق فيه بإعجاب كما فعل نرجس ، بل لغرض تأمله نقدياً وإعادة تكوين أنفسنا باستمرار إلى ما هو أحسن .

دعونا نحيي سمية رمضان التي أضاءت بعملها عتمة الأفق ومنحتنا رواية معاناة فردية مثيرة لعواطفنا وأمثولة وطنية مثيرة لتأملنا .

من حيثيات تقرير الفوز بالجائزة